عمران حضاري

د. أحمد صدقي الدجاني



مركز يافا للدراسات والأبحاث

مسلمون ومسيحيون

في

الحضارة العربية الإسلامية

اسم الكتاب: مسلمون ومسيحيون فى الحضارة العربية الإسلامية

المــؤلــف: أحمد صدقى الدجاني

سنة النشر: ١٩٩٩

رقم الايداع: ٩٩/٤١١٩

الطبعــة: الأولى

النــاشــر: مركز يافا للدراسات والأبحاث ـ القاهرة

القاهرة ـ ص . ب / 806 المعادى ـ رمز بريدى / 11728 تليفون: 3756596 - 3752350

CAIRO P.O. BOX 806 MAADI - POSTAL CODE 11728
TEL & FAX: 3752350 - 3756596
e-mail: Yafa - rf@hotmail. Com

مقدمة

الاختلاف بين الناس في الوجهة والشرعة والمنهاج قائم منذ كان الاجتماع الإنساني وهو ثابت بإرادة الله وحكمته الذي لوشاء لجعل الناس أمةً واحدة. والتعامل مع هذا الاختلاف قضية بالغة الدقة والحساسية. وهو كما يقول لنا التاريخ، يأتي بأطيب الثمار إذا قام على مبادىء صحيحة التزم المجتمع بها نصاً وروحاً. وما أشد مايسببه من معاناة ومأس إذا قام على مبادىء خاطئة.

قضية التعامل مع اختلاف الأقوام في مللهم مطروحة اليوم بقوة في عالمنا، في وقت نشهد فيه خللاً عظيماً في هذا التعامل في أنحاء مختلفة من العالم. وقد بلغ هذا الخلل اقتراف أقوام جريمة مايسمى في الغرب «التطهير العرقي»Cleansing تجاه أفراد ملل أخرى والقضية مطروحة أيضاً في وطننا العربي ودائرتنا الحضارية العربية الإسلامية بفعل ممارسات خاطئة في بعضي أوساطنا، تقوم قوى الهيمنة الدولية المتربصة بنا باستغلالها للتحريض على الفتنة. ومن هنا برزت الحاجة الماسة لمعالجة هذه القضية، والتعامل معها وفق مبادئ صحيحة.

حين بعث الله سبحانه محمد بن عبدالله (ﷺ) نبياً ورسولاً بدين الإسلام، أنزل عليه الوحي بالهدى القرآني متضمناً المبادئ الصحيحة للتعامل مع هذه القضية. فكان الأمر الإلهي لكل صاحب وجهة وشرعة

ومنهاج« باستباق الخيرات» مع المختلفين معه فى الوجهة والشرعة والمنهاج. وكان إرساء مبدأ «لا أكراه فى الدين» و« لكم دينكم ولى دين» وكانت الدعوة لأهل الكتاب« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً، ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله».

وجاءت سيرة محمد ﷺ حافلة بأمثلة حية على تطبيق هذه المبادىء. ثم قامت دولة الخلافة فالتزمت بما جاء به الوحى، وكان أن شهدت حضارة الإسلام معالجة إيجابية لهذه القضية فى غالب الأحيان، تستحق استحضارها والنظر فيها وتقويمها بغية الوقوف على ما اعتورها من سلبيات ينبغى التغلب عليها، وما حفلت به من إيجابيات يمكن استلهامها.

ما أشد ما عانى عالمنا من التعامل الخاطئ غير المنصف مع اختلاف الأقوام فى مللهم طوال هذا القرن العشرين الميلادى. حربان غربيتان طاحنتان فى النصف الأول منه، حولتها قوى الهيمنة الغربية إلى حربين عالميتين .وحرب باردة أخرى فى النصف الثانى منه، فرَّخت عشرات الحروب المحلية والإقليمية التى نفخ فى أوارها المعسكران الغربيان«الشرقى والغربى» من دائرة الحضارة الغربية . وبالفظاغة ماحدث قبيل هذه الحروب وخلالها من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ومن طغيان الإنسان بأسلحة الدمار على أمنا الأرض وسائر المخلوقات. الأمر الذى جعل أهل رأى غربيين يستشعرون الحاجة ماسة لمعالجة هذه القضية.

فكان أن برز فى أوساطهم الحديث عن التعددية والتعايش والتسامح، وضرورة الحوار للوصول إليها. ثم كان أن اتجه هؤلاء بفعل عوامل محددة إلى دوائر الحضارات الأخرى غير الغربية فى عالمنا، طارحين على علمائها وقياداتها الروحية الحوار الديني. وهكذا رأينا المباشرة فى حوار إسلامى مسيحى حين استجابت دائرتنا الحضارية لهذه الدعوة بعد أن تدفقت فيها موجات ثورة التحرير فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. وقد نشطت هذه الدعوة للحوار الدينى ولحوارات حضارية بعامة بعد حرب رمضان ١٣٩٣ هـ. ١٩٧٣م . التى توافر لدائرتنا الحضارية من خلالها حدٌ من الندية.

أذكر أننى عنيت بهذه الحوارات بعامة منذ مطلع السبعينات، بصفتى العلمية ومن موقع مشاركتى فى الأمور العامة. فكان أن شاركت فى الحوار العربى الأوروبى منذ مباشرته عام ١٩٧٥ . وحرصت على أن أصدر كتاباً عنه جمعت فيه وثائق هذا الحوار، وكتاباً آخر ضمنّته حصيلة خبرتى فيه بعنوان «الحوار العربى الأوروبى الفكر والمسار والمصير». وقد لمست من خلال دورى فى رئاسة لجنة الثقافة فى هذا الحوار مدى أهمية العناية بالحوار الدينى.

جذبنى هذا الحوار الدينى الإسلامى المسيحى، وكانت أول مشاركة لى فيه بحضور ندوة استضافتها طرابلس الغرب فى أوائل عام ١٩٧٦، دار فيها حوار غنى حول«إمكانية أن يكون الدين ايدلوجية للحياة»، و«الأسس

المشتركة بين الديانتين فى المعتقدات» و«العدل الاجتماعى ثمرة الإيمان بالله»، و«كيف نتغلب على الأحكام المسبقة وسوء الفهم اللذين يفرقان بين اتباع الديانتين.» وأذكر كيف سجلت فى دفتر خواطرى انطباعى عن هذه الندوة وتأثرى بما ميّزها من« جوٍّ روحى أورثنى صفاءً وشفافية». وتابعت منذ ذلك الحين العناية بهذا الحوار الإسلامى المسيحى.

فى نطاق الاشتغال بهذا الحوار أقبلت على المشاركة فى عدد من لقاءات نظامها «المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية» الأردنى مع كل من الفاتيكان لبروما والمركز والأرثوذكسى بسويسرا. وكتبت عدداً من البحوث المتصلة بقضية« التعامل مع اختلاف الأقوام فى مللهم» فى ضوء ماجاء به الوحى الإلهى من الهدى القرآنى . كما استجبت لدعوة أكاديمية المملكة الغربية لكتابة بحث عن حصيلة الحوار الإسلامى المسيحى فى مرحلة الحرب الباردة . وقد أتاحت لى المشاركة فى نشاطات هذا الحوار أن أحظى برفقة عدد من علماء المسلمين وأغتنى بنظراتهم وأفكارهم . وكذلك بالتعرف على عدد من العلماء المسيحيين من أكثر من مذهب والإفادة من آرائهم.

يسعدنى أن أضمن هذه الرسالة خمسةً من هذه البحوث التى عالجت هذه القضية الحيوية، «قضية التعامل مع اختلاف الأقوام فى مللهم». يعرض أولها لموضوع«التعايش الدينى فى الحضارة العربية الإسلامى» مبيناً أساسه النظرى كما جاء به الوحى الإلهى، والممارسة العملية له،

والنتائج التي نستخلصها منها. وموضوع البحث الثاني هو« التعددية الدينية في ظل الحضارة العربية الإسلامية ». أما موضوع البحث الثالث فهو «حصيلة الحوار الإسلامي المسيحي في مرحلة الحرب الباردة». وموضوع البحث الرابع هي «آفاق التعاون والمشاركة بين المسلمين والمسيحيين على المستويين الوطني والإقليمي» . وموضوع البحث الخامس هو «مسلمون ومسيحيون في المجتمع المعاصر ومعنى المواطنة». وقد رأيت أن استهل الكتاب بما سجلته من خواطر حول ندوة طرابلس الغرب «الحوار الإسلامي المسيحي.

كما يلاحظ القارىء الكريم، جاءت عناوين بعض البحوث متضمنة المصطلحات التي شاعت في دائرة حضارة الغرب، مثل «التعددية الدينية»Pluralism Relegious والتعايشCO. existence ، والتسامح» Tolerence ومردّ ذلك إلى أن الجانب الغربي المسيحي في الحوار اقترح مصطلحاته. وكان موقف الجانب العربي الإسلامي من هذا الأمر، وفي اعتباره ضرورة الوقوف أمام المصطلح والتدقيق فيه، أن يقبل الجانب المقترح الغربي بداية ويقترح من ثم مصطلحاته هو المستلهمة من مرجعية الوحي الإلهي في الهدى القرآني التي شاعت في حضارتنا العربية الإسلامية، وأن يقدم ملاحظاته على المصطلحات الغربية قبولاً ورفضاً. ذلك أن تبلور مصطلح ما في الاجتماع الإنساني متصل بمبادىء تحكم هذا المجتمع وقيم دينية حضارية. وما أكثر مايتضمن المصطلح تحيزاً يستوجب

الحذر منه، كما أوضحت ندوة اشكالية التحيز التى حررها أخونا. د.عبدالوهاب المسيرى.

إننا فى حضارتنا نتحدث عن مبدأ« لا إكراه فى الدين» الذى يعنى «حرية الاعتقاد» لكل الملل، وهو مقابل لمصطلح التعددية الدينية. كما نتحدث عن «التعارف وصولاً للتعاون على البر والتقوى مع استباق الخيرات، وهو يتضمن معنى «التعايش» الذى كان بديهية بحكم الشريعة الإسلامية، ويتجاوزه إلى التعاون . ونتحدث عن «السماحة واليسر» وليس عن «التسامح» الذى يفترض أن الآخر أخطأ والأول يسامحه . وقد شاع في الغرب مصطلح«الأقليات»Minorities النابع من مفهوم معين لمجتمع الدولة الوطنيةNation - State بينما لم تعرف حضارتنا هذا المصطلح لأن لكل قومٍ أو ملة ذاتية خاصة فى إطار المجموع الذى يمثل الوحدة من خلال التنوع.

وبعد.. فإن لنا أن نتابع عنايتنا بهذه القضية الحيوية، وصولاً إلى تقوية أواصر تعاون المؤمنين على البر والتقوى، مسلمين ومسيحيين، فى نسيج مجتمعاتنا فيما نصطلح عليه اليوم باسم. الوحدة الوطنية، وعلى صعيد كوكبنا . وإن أن أشيد بجهود عدد من مفكرى صحوتنا الحضارية فى معالجة هذه القضية فى العقدين الأخيرين بخاصة والله نسأل أن يأخذ بأيدينا لعمل الصالحات.

أعرب عن شكرى لمركز يافا للدراسات والأبحاث وعنايته بإصدار هذا الكتاب فى سلسلة «عصارات فكرية» وأرجو أن يجد القارىء الكريم فيه ما يمتعه ويفيده . والله الموفق.

ندوات .. «تأملات روحية»

١٠/ ٢/ ١٩٧٦

عائد من طرابلس الغرب حيث شاركت في أعمال «ندوة الحوار الإسلامى المسيحى» . أيام حافلة عشتها فى رحاب هذه الندوات عرفت فيها لحظات تألق رائعة، وعملت فيها كثيراً بدأب وبسعادة غامرة، وكنت قد دعيت كعضو مراقب في هذه الندوة التى ضمت أكثر من ثلاثمائة من الأعضاء المراقبين فيهم علماء ومفكرون وسياسيون وإعلاميون ثم طُلِبَ إلى أن أكون عضواً مشاركاً وواحداً من الأثنى عشر عضواً المشاركين فى الجانب الإسلامي. وذلك حرصا على إبراز صورة فلسطين، فوافقت مستشعرا المسؤولية الملقاة على عاتقي.

اندمجت سريعاً فى أعمال الندوة بعد أن أشبعت فضولى فى معرفة الظروف التى أحاطت بانعقادها حتى أكون على بينة من الأرض التى أقف عليها، وسعدت بلقاء عدد من أصدقائى القدامى وعدد أكبر من الحاضرين ، وعلى مدى أيام أربعة دار حوار غنى حول «إمكانية أن يكون الدين أيديولوجية للحياة» و«الأسس المشتركة بين الديانتين فى المعتقدات»، و«العدل الاجتماعى ثمرة الإيمان بالله»، و«كيف نتغلب على الأحكام المسبقة وسوء الفهم اللذين يفرقان بين أتباع الديانتين».

ماكان أروع افتتاح أعمال الندوة بقراءة من القرآ الكريم وقراءة من الإنجيل، وقد اتسم الحوار فى مجمله بالموضوعية. والإيجابية المعبرة عن

الرغبة في اللقاء.. وخيم على الندوة ـ وهذا هو ماميزها ـ جو روحي موح أورثني صفاء وشفافية، وعزز إيماني بإمكانية انتصار جانب الخير في الإنسان. ولقد بلغت ذروة التألق وأنا أتأمل في الحديث الدائر حول الأسس المشتركة بين الديانتين في المعتقدات وتتالت أمام ناظري مواكب الأنبياء والرسل واصخت السمع لنداءاتهم بإعلاء كلمة الله في الأرض.

هذا هو محمد خاتم النبيين يتلو قول الله«وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» ومن قبله ردد يوحنا «يحيى» قول أشعيا«صوت مناد في البرية. اعدوا طريق الرب. واجعلوا سبله قويمة».

هذا هو محمد رسول الله يتلو قول الله« والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» ويتلو قول الله« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملا قيه» وهذا هو عيسى رسول الله يعلم تلاميذه على الجبل «طوبى للرحماء فإنهم يرحمون. طوبى للساعين إلي السلام فإنهم أبناء الله يدعون.. انتم ملح الأرض ، فإذا فسد الملح فأى شيء يملحه؟ انتم نور العالم لاتخفى مدينة على جبل، ولايوقد سراج فيوضع تحت المكيال ولكن على المنارة ليضيء لجميع الذين هم في البيت .. فليضيء، نوركم هكذا للناس، ليروا أعمالكم الصالحة، فيمجدوا أباكم الذى في السماوات».

يطول بي الحديث لو استرسلت مع تأملاتي الروحية في تلك الساعة

الموحية. وبودى أن أتحدث عن الدفء الذى كان يشع من بعض الحاضرين وفيهم عدد من علمائنا الأجلاء جاءوا من شتى أقطار الإسلام . كما أشير على الخصوص إلى الكاردينال بيندولي الذى قاد الجانب المسيحى فى الحوار . ولقد توطد تعارفنا على مدى أيام اللقاء. وكان يشدنى إليه دوما ابتسامة راضية وحيوية تلفت النظر ومحبة تشع ، ولكم شعرت بقربه فى أكثر من حديث جانبى سألنى خلالها عن شعب فلسطين ، وتحدثت فيها عن القدس.

ثارت قضية فلسطين مرارا فى الندوة باعتبارها الوطن الروحى للأديان السماوية، وطرحنا السؤال ماذا يستطيع المؤمنون إن يعملوه لقضية فلسطين ولتحرير الأرض المقدسة من الاحتلال الصهيونى ، وطرحت إجابات قيمة ظهرت فى الورقة التى صدرت عن الندوة.

طرح الأخوة من الجانب الإسلامى طروحات ثمينة. وكان أخي إبراهيم الغويل متألقا كعهدى به. وقد تألق فى الطرح عز الدين إبراهيم والدكتور صبحى الصالح. وأسهمت بدورى فى طرح بعض الأفكار . تحدثتُ عن بعدى الزمان والمكان وشرحت مشكلات عصرنا وتحدياته بحثا عن الاستجابة الصحيحة، وطرحت فهمنا لمصطلح الحوار«فهو ليس مناظرة ولاتفاوض ولا إملاء.. ولكنه بحث عن التعارف والفهم وصولا للقاء» وتساءلت «كيف يمكن للدين أن يقوم بدوره فى عالمنا؟ وجاء الجواب بأن ينشغل بقضايا الإنسان ويتصدى لمشكلات عالمنا. وقلنا:إن

أعظم مهمة يمكن للدين أن يحققهـا للإنسان هى أن يعيد له توازنه ويضعه فى مكانه الصحيح من نظام الكون باعتباره المستخلف فى الأرض.

لم تخلُ الندوة من لحظـات توتر حين جـرى الحديث عن سوء الـفهم وعرض لتجارب الماضى . ولقد أكدنا فى هذا الصدد أن التاريخ يجب ألا يكون عبـثاً، وصفحات التاريخ امـتلأت بصورة التصادم والـتآخى والذى يبقـى عند الله هو العـمل الصالح« فأمـا الزبد فيذهـب جفاء. وأما ما يـنفع الناس فيمكـث فى الأرض» . والمهم أن يستخلص المؤمنـون عبرة التاريخ وينشغـلوا بمعالجة الأزمة الروحـية التى تعانى منـها حضارتنا الإنسـانية فى هذا العصر.

كنت فى خضم العمل استريح أحيانا بالانتقال ببصرى بين الجالسين فى القاعة الواسعة من موقعى على المنصة. وقد استوقفنى منظر زوجين تجاوزا السبعين، فتعرفت عليهما فى المساء، وتابعتهما بشغف وأنا أرى عطف كل منهما على الآخر وعـنايته به .وتأملت طويلا فى معنى الرفـقة ومايقترن بها من سكـنى ومودة وتلك هـي« ألفة الله» كمـا قال محمد رسـول الله ثم تلا قوله تـعالى ﴿ومن آيـاته أن خلق لـكم من أنفسـكم أزواجاً لتـسكنوا إلـيها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾.

أليس تأملى فى هذا المنظر مرتبطا بشوقى إلى نصفى وإلى أسرتى؟؟

التعايش الديني
في
الحضارة العربية الإسلامية (٠)

البحث القيم الذي تقدمت به الأستاذة الدكتورة أمل دوغرامجي إلى هذا اللقاء الكريم يعرض مثلا رائعاً لما يُسمى اليوم «التعايش بين المسلمين والمسيحيين» في بلاد الشام ومصر والامبراطورية العثمانية من منظور تاريخي». وقد وفق هذا البحث إلى رسم الإطار التاريخي للموضوع من خلال توضيح المركز الإداري للأقطار، وشرح خصائص الحكم الإسلامي فيها، ودراسة حال الإدارة العثمانية لها بخاصة، ومن ثم تقديم صورة شاملة لكيفية عيش الجماعات الإسلامية والمسيحية معاً. وإني إذ أثني على عمل زميلتنا الكريمة ألاحظ أنها حرصت في الجزء الأخير من بحثها على مناقشة مقولة بعض الباحثين الغربيين، التي تأثر بها بعض المثقفين المسلمين حول «كون الدولة العثمانية دولة استعمارية» بالمفهوم الغربي للكلمة، وقد توصلت إلى تفنيد هذه المقولة، وتقرير أن الدولة العثمانية كانت قادرة على «إقامة مناخ من السلام والسكينة ضمن حدودها» وذلك بفضل التسامح والتعاون.

---

(٠) ألقيت هذا البحث في اللقاء الإسلامي المسيحي الذي انعقد بعمان عاصمة الأردن بدعوة من المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في ١٩٨٧/١١ وذلك في معرض التعليق على موضوع التعايش الديني الذي قدمت بحثاً فيه أ د. أمل دوغرامجي من تركيا.

تعليـقى على هذا البحـث القيم يتناول نقـاطاً ثلاثا استشعـر الحاجة إلى مزيد من تسليط الضوء عليها، وهى تتعلق بالأساس النظرى للتعايش أولاً، وبـالممـارسة الـعمـلية له. ثـانياً ،وبالـنظـر فى هـذه المـارسة وتحـليـلها واستخلاص نتائج . ثالثاً. وأمهد لهذه الـنقاط بتحديد لاصطلاحات تتعلق بالموضوع أقف أمامها بداية.

يجرى حـديثنا عـن «التعايش بـين المسلمين والـنصارى في بـلاد الشام ومصـر فى ظـل الحكـم الإسلامى بعـامة والدولـة العـثمـانيـة بخـاصة». و«التعايش» اصطلاح معاصر من حيث الاسـتعمال، وهو يطلق فى عصرنا «للتعبـير عن أن الاختلاف فى المذاهب الـعقائدية على صعـيد الدول وما يترتب عـليه من سياسـة، لايشكل عقبـة فى سبيل قيـام العلاقات السلـمية بينها» . وقد استعمل هذا الاصطلاح أيضاً فى الدلالة على إمكانية التعاون بين «الأقلية» فى دولـة ماوبين«الأكثرية»، وإن كانت الأقليـة تختلف عن الأكثـرية من حـيث الأصل أو الـلغة أو الـدين» [1] وكانت نـشأة هذا الاصطـلاح فى الـغرب« بمـعسكريـه الغـربى والـشرقـى» حيـث اشتـد الاختلاف العـقيدى بين دول المعسكريـن من جهة، كما اشتد بـين مواطنى الدولة الـواحدة المتبـاينين فى الأصـل أو اللغة أو الـدين من جهـة أخرى. وواضـح أن دلالة اصـطلاح الـتعايـش تجمـع بـين «وجود اختلاف مـا وإمكانية التعاون، فى دائرة تضم مجموعة من الناس».

(١) انظر معجم العلوم الاجتماعية تقديم إبراهيم مدكور الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥

إن حديثنا هو عن «تعايش إسلامى مسيحى» . وتجدر الإشارة هنا إلى أن أهل المنطقة التى يتناولها الحديث يسمون المسيحيين «نصارى» وهى التسمية الواردة فى القرآن الكريم. وهذا الاسم يُلمح إلى «الناصرة» التى كان ينتمى إليها عيسى عليه السلام، كما يتضمن معني«العطاء» و«العون» وقد ورد فى لسان العرب أن الناصرة قرية بالشام«والنصارى منسوبون إليها». وورد أيضاً أن النصارى «جمع نصرى ونصران» من نصر بمعنى «أعان وأعطى»

ونحن حين نتحدث عن الحكم الإسلامى، ففى اعتبارنا «الدولة الإسلامية » التى قامت إثر هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وحكمها بعد وفاته « نظام الخلافة الإسلامية». وقد استمر هذا النظام بدون انقطاع حتى عام ١٩٢٤ حين تم القضاء على الدولة العثمانية.وشهدت هذه الدولة تتالى حكام وأسر حاكمة على مدى ثلاثة عشر قرناً ، حملت أسماءها .والدولة العثمانية هى آخر أكبر حلقات هذه السلسلة. وقد عرفت بأنها «دولة» حيث لم تشع تسمية «الإمبراطورية» فى منطقتنا، بينما شاعت هذه التسمية فى الغرب ويمكن أن تميز فى تاريخ هذه الدولة على صعيد تطبيقها نظام الخلافة بين مرحلة ما قبل «التجديد» الذى اتضحت ملامحه فى القرن التاسع عشر، ومرحلة« التجديد» التى شهدت إعلان «المشروطية» . وكان الحكم فى المرحلة الأولى يعتمد الشرع الإسلامى كلية. وقد اتجه فى المرحلة الثانية بسبب ظروف أحاطت بالدولة العثمانية

إلى الأخذ ببعض المفاهيم الغربية محاولاً التوفيق بينها وبين مفاهيم الشرع.

لقد قام الحكم الإسلامي على «أساس نظرى» تضمن نظرات فى الكون والحياة والإنسان، وتضمن فيما تضمن نظرة «للتعايش» بين الأديان وليس مجال هذا التعليق شرح تلك النظرات، وإنما الإلماح إليها

تتضمن هذه النظرات أن الله جعل «فى الأرض خليفة» ، وأنه خلق الناس من «نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً» ، جعل الذكر والأنثى «بعضاً من بعض» ، و«خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا» وهم مدعوون إلي التعاون « علي البروالتقوى» ، وقد أرسل الله لهم«رسله بالبينات» ، «وأنزل مع الرسل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» ، وليعبدوا الله مخلصين له« الدين»، و«شرع» لهم من الدين ماوصى به الأنبياء، «وإن الدين عند الله الإسلام»، وجميع أنبياء الله مسلمون له، ولكل جعل منهم «شرعةً ومنهاجاً» تضاف إليه، ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً وأبنائه من بعده، «ولا إكراه فى الدين»، و«الله يفصل بين اتباع الأديان يوم القيامة ومن هؤلاء أهل الكتاب من اليهود والنصارى»

لقد انطلق ابن خلدون من هذه النظرات حين استهل تاريخه الشهير قائلا« أعلم أن الله سبحانه اعتمر هذا العالم بخلقه، وكرم بنى آدم باستخلافهم فى أرضه، وبثهم فى نواحيها لتمام حكمته، و«خالف» بين

أممهم وأجيالهم إظهاراً لآياته، و«فيتعـارفون» بالأنساب ويختلفون باللغات والألوان، «ويتمايزرون» بالسير والمذاهب والأخلاق، «ويفترقون» بالنحل والأديان والأقـاليم الجهـات» .وضرب ابن خلـدون أمثلـة على ذلك كـله وانتـهى إلـى القول «لـيتم أمـر الله فى «اعـتمار» أرضـه، بما يتـوزعونـه من وظائف الرزق وحاجات المعـاش بحسب خصوصياتهم ونحلـهم، فتظهر آثار الـقدرة وعـجائـب الصـنعـة وآيات الـوحدانـية، أن فـى ذلك لآيـات للـعالمين.و أعـلم أن الامـتياز بـالنسـب أضعف المـميـزات لهذه الأجـيال والأمم...»[1] فهـناك إذن «اخـتلاف» و«تمـايز» و«افـتراق» وهـناك أيـضاً «تعارف» و«تعاون» بغية «اعتمار» هذا الـعام بالاجتماع الإنسانى الذى هو ضرورى للنـوع الإنسانى .وهذا هو جوهـر مضمون اصطلاح «الـتعايش» الحديث.

قبل ابن خـلدون انطلق الشهر سـتانى من هذه النظرات حـين كتب فى «بيان تقسيم أهل الـعالم جملة مرسلة» وهو يقدم لكتـابه «الملل والنحل» . وقد أورد تقسـيم أهل العالـم بـحسب الأقاليم الـسبعة، وبحسـب الأقطار الأربعـة الشرق والـغرب والجنوب والـشمال، وبـحسب الأمم، وأخـيراً بحسب الآراء والمذاهب . واعتـمد التقسيم الأخير فى تأليف كـتابه مقسماً أهل العالم إلـى «أهل الديانات والملل، وأهل الأهـواء والنحل» . وحرص الشهرستانى على أن يوضح الفرق بين الدين الذى هو «الطاعة والانقياد»،

---

(١) ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر.

والملة التى هى «اجتماع الناس على شكل يحصل به التمانع والتعاون» ، والمنهاج والشرعة والسنة التى هى «الطريق الخاص الذى يوصل إلى هيئة هذا الاجتماع». [٢] وهكذا فإن الناس ينقسمون ضمن دائرة الدولة الإسلامية ، لأنهم أحرار فيما يعتقدون ولا إكراه فى الدين.

لقد اعتنى الفقه الإسلامى باستنباط احكام من هذه النظرات، وبحث بداية فى مسألة صلة الإسلام بالشرائع الأخرى فى وظيفة الإسلام فى العالم. وكان مما كتبه أبو حنيفه في القرن الثانى للهجرة «إن رسل الله لم يكونوا على أديان مختلفة، ولم يكن كل رسول منهم يأمر قومه بترك دين الرسول الذى قبله لأن دينهم كان واحداً. وكان كل رسول يدعو إلى شريعة نفسه وينهى عن شريعة الرسول الذى قبله لأن شرائعهم كثيرة مختلفة ، ولذلك قال الله تعالي« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ـ أى فى الشريعة ـ وأوصاهم جميعاً بإقامة الدين وهو التوحيد ولايتفرقوا لأنه جعل دينهم واحداً « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه».. فالدين لم يبدل ولم يحول ولم يغير؛ والشرائع قد غيرت وبدلت لأنه رب شيء قدكان حلالاً لأناس قد حرمه الله عزو جل علي آخرين..» ورأى أبو حنيفة أن وظيفة الإسلام فى العالم توحيدية فالله عزوجل «إنما بعث رسوله رحمة ليجمع به الفرقة، وليزيد الألفة، ولم يبعثه ليفرق الكلمة ويحرش الناس بعضهم على بعض[٣].

---

(٢) الشهرستانى الملل والنحل .

(٣) انظر رضوان السيد/ بحث المسيحيون فى الفقه الإسلامى من كتاب «المسيحيون العرب»، وهو يشير إلى رسالة العالم والمتعلم لأبى حنيفة

إن مانخلص به من استحضار هذه النظرات هو أن الدولة الإسلامية اعتمدت أساسا نظريا للحكم الإسلامى يوفر أفضل مناخ «للتعايش» بين الناس أياً كانت معتقداتهم ولغاتهم وأجناسهم وإنماط حياتهم وتقاليدهم. وقد اتبعت هذه الدولة سياسة تحترم حرية الاعتقادية يصفها أدمون رباط بأنها «كانت فتحا بذاتها، فى عالم الفكر والدين، وأنها استندت إلى آيتين كريمتين الواحدة التى تقضى بأن لا إكراه فى الدين ، والثانية بأن على أهل الكتاب الذين يختارون البقاء على دينهم «أن يعطوا الجزية» وهو يقرر أن هذه السياسة «كانت ابتكارا عبقرياً، وذلك لأنه للمرة الأولى فى التاريخ ، انطلقت دولة هى دينية فى مبدئها، ودينية فى سبب وجودها، ودينية فى هدفها، ألا وهو نشر الإسلام.. إلى الإقرار فى الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها، أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطرز حياتها، وذلك فى زمن كان يقضى المبدأ السائد باكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم ، بل وحتى على الانتماء إلى الشكل الخاص الذى يرتديه هذا الدين، كما كان عليه الحال فى المملكتين العظمين اللتين كان يتألف منهما العالم القديم ـ وهو المبدأ بل القاعدة السياسية المعروفة بصيغتها اللاتينية Ejus rejio cujus religio،هذه القاعدة التى لم تندثر فى البلاد الغربية إلا بفضل الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر»[١].

(١) أدمون رباط/ بحث المسيحيون فى الشرق قبل الإسلام من كتاب «المسيحيون العرب» نشر مؤسسة الأبحاث العربية.

لقد أرسى هذا الأساس النظرى الإسلامى أساس «التعايش» بين المسلمين وجميع أتباع الديانات الأخرى الذين عاشوا فى ظل الحكم الإسلامى ـ ولكنه تضمن فى الوقت نفسه ما أعطى النصارى بينهم مكانة خاصة لأنهم «أهل كتاب»، وأقربهم مودة للذين آمنوا، ومنهم قسيسون ورهبان، وأنهم لايستكبرون .ولنا أن نقف أمام الآية الكريمة التى يقول فيها الله تعالى «اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، » لأنها فتحت الباب واسعاً أمام العيش المشترك . ولنا أن نقف أيضاً أمام دعوة أهل الكتاب «إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لاتعبد إلا الله، ولانشرك به شيئاً» ، لأنها تبحث عن القاسم المشترك وتركز على نقاط اللقاء.

إلى أى مدى جاءت الممارسة العملية على صعيد علاقات المسلمين والنصارى فى الدولة الإسلامية مصدقة لهذا الأساس النظرى للتعايش؟

إن البحث القيم الذى تقدمت به زميلتنا الأستاذة يظهركم كان المدى كبيراً. وقد حرص هذا البحث على أن يشرح مضمون سياسة التعايش، وأن يقدم أمثلة حية عليها. ويسرنى أن انطلق مما جاء فيه لأسلط مزيداً من الأضواء على نقطة الممارسة العملية.

لقد شهدت الفترة المدنية من البعثة اكتمال نظرات الإسلام وتطبيقها عملياً فى المجتمع والدولة. ويلفت النظر أن«الصحيفة» التى أملاها رسول الله ﷺ لإقرار العلاقات وتحديد الالتزامات فى المجتمع الإسلامى والدولة

الإسلامية، تضمنت مبدأ إقرار حرية الأديان السماوية واعتبار أتباعها مواطنين لهم حق التمتع بحماية الدولة، إلى جانب مبدأ المساواة وعدم الاعتراف بالتمايز الطبقي أو الاستغلال الفردي، ومبدأ التراحم والتعاون، ومبدأ سيادة القانون والعدل. وقد تحدثت عن اليهود بالاسم لأنهم كانوا يعيشون في المدينة وحولها، وقررت أنهم «أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لايوقع إلا نفسه وأهل بيته».

ونظمت حقوق اليهود وواجباتهم في الدفاع عن الدولة الجديدة، وكفلت لهم الأمن« وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ ». وتعتبر هذه الصحيفة بمثابة دستور الدولة الإسلامية (١).

إن العهد الذي أعطاه رسول الله ﷺ لنصارى نجران يقدم نموذجاً لعقد الذمة بين المسلمين والكتابيين. ويبيح هذا العهد الحرية الدينية، وكذلك الحرية في ممارسة الشئون الاقتصادية، والمساهمة في جميع الأعمال التي يرغبون القيام بها. وقد وردت فيه كلمة «ذمة» مضافةً إلى محمد، وهي لغة مثل الذمام والمذمة ومعناها كما يقول صاحب المفردات في غريب القرآن «ما يذم الرجل علي إضاعته من عهد» (٢). ومما جاء فيه «ولنجران، وحاشيتها جوارُ الله ، وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم،وأرضيهم

---

(١) انظر إ براهيم أحمد العدوى النظم الإسلامية ص ١١٧ در الانجلو المصرية.

(٢) يراجع الراغب الاصفهاني في مفردات غريب القرآن.

وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير، لايغير أسقفا من أسقفيته، ولا راهبا من رهبانيته ولا كاهنا من كهانته، وليس عليهم دية، ولا دم جاهلية ، ولايحشرون ولايعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم جزيته فسهمهم النصف غير ظالمين ولامظلومين، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله، وذمة محمد النبى رسول الله»[٣] وقد أورد المؤرخون نصوص كتب أرسلها رسول الله ﷺ لنصارى فى بلاد الشام [٤] وبحث الفقهاء فى عقد الذمة هذا وحكمة مشروعيته وقرروا أن المقصود منه« ترك القتال وليس المال»، وأنه «مؤبد» لايستطيع المسلمون أن ينقضوه أو يعلنوا حله لمخالفة ذلك للتوحيد الذى دعا إليه القرآن، وللدعوة التى ترى فى العالم كله « أمة دعوة يمكن أن تصبح أمة إجابة. والذمى هو الذى يملك نقض العقد وحده إما صراحة أو بقرينة من مثل قتال المسلمين مع محاربيهم [٥] وإن خير ايجاز لمضمون عقد الذمة قول الرسول ﷺ فى أهل الذمة «لهم مالنا وعليهم ما علينا» مع استثنائهم مما يمس المسائل الدينية ويتصل بها احتراما لما يعتقدونه. وتحفل كتب السيرة النبوية بما يبين أن رسول الله كان يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويشيع جنازاتهم ويكرمهم. وقد أوصى

(٣) يراجع العدوى ص ٣٩٠،وقد أورد النص البلاذرى فى فتوح البلدان، وابن قيم الجوزيه فى أحكام أهل الذمة.

(٤) يراجع بحث جاسر أبو صفية«المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية فى جنوبى بلاد الشام» ـ المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام.

(٥) يراجع رضوان السيد مصدر سبق ذكره.

المسلمين باحترام عقد الذمة فى قوله «احفظونى فى ذمتى» .ومما رواه عمرو بن العاص عنه ورده لعماله، وهو والى على مصر قول الرسول ﷺ« إن الله عزوجل سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صهراً وذمة» . والصهر يتضمن الإشارة إلى هاجر أم إسماعيل عليه السلام ومارية القبطية التى انجبت لرسول الله ابنهما إبراهيم.

لقد انبثق عن «عقد الذمة» هذا «نظام أهل الذمة» الذى استمر فى الدولة الإسلامية على مدى ثلاثة عشر قرناً، منذ الخلافة الراشدة فالأمويين فالعباسيين حتى العثمانيين . وإن دراسة التاريخ الإسلامى فى مراحله المتعاقبة ترينا أن تطبيق هذا النظام بنصه وروحه كان هو القاعدة، وقد جاءت الممارسة العملية مصدقة للأساس النظرى للتعايش . ولكن حدثت فى بعض الأحيان تعديات على هذا النظام بنصه وروحه، فلم تصدق الممارسة العملية الأساس النظرى للتعايش، وكان هذا هو الاستثناء. كما تبين لنا دراسة هذا التاريخ الإسلامى أن أهل الذمة وبخاصة النصارى منهم قبلوا هذا النظام، واستراحوا له، وامتزجوا فى مجتمع الدولة، وعبروا عن ولائهم لها، وانطلقوا بطاقاتهم مسهمين فى تشييد الحضارة العربية الإسلامية، وتابعوا التمسك بمعتقداتهم .والأمثلة على هاتين الحقيقتين كثيرة كثيرة ولايتسع مجال هذا التعليق لايرادها. ويكفى أن نشير فيما يمثل «القاعدة» إلى قصة عمر والذمى العجوز الضرير الذى كان يسأل حيث وضع عنه الجزية وعن ضربائه وصرف له

من بيت المال معتبراً إياه من المساكين، وإلى قصة أهل حمص مع الفاتحين العرب المسلمين التى رواها البلاذري، كانوا من النصارى في غالبيتهم. وإلى قصة البطريق بنيامين مع عمرو بن العاص في مصر، وإلى موقف عمر بن عبدالعزيز من جباية الجزية والخراج، وإلى مشاركة نصارى الشام الفعالة في أعمال الدولة الأموية ومن بينهم يوحنا الدمشقى الشهير، وإلى ماقاله الجاحظ عن نصارى عصره العباسى« وكان منهم كتاب السلاطين وفراشو الملوك وأطباء الأشراف.. وقد نافسوا المسلمين فى لباسهم ومركوبهم وألعابهم، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلى واكتنوا بذلك أجمع .. وكان المسلمون أعطف على النصارى من اليهود»[1]. ونشير فيما يمثل «الاستثناء» إلى ماحدث من خلل فى الممارسة إبان حكم الحاكم بأمر الله، وخلال بعض فترات الغزو الفرنجى، وأثناء فترة الغزو الاستعمارى الغربى الحديث منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادى.

بقى أن نلاحظ على صعيد الممارسة العملية أن «نظام الملل» الذى سارت عليه الدولة العثمانية هو «نظام أهل الذمة» نفسه. والملة لغةً كالدين والفرق بينهما أن الملة لاتضاف إلا للنبى الذى تسند إليه. وقد استوحى القانون الأساسى العثمانى هذا النظام حين تعرض فى مواده لغير المسلمين[2]. فالدولة جسم واحد لاتقبل الانقسام لأية علة كانت،

(١) يراجع محمد كرد على الإسلام والحضارة العربية ص ٤٠ ومابعدها

(٢) يراجع ساطع الحصرى البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٥٧ النص الكامل لهذا القانون الذى صدر عام ١٨٧٦.

والسلطنة السنية هي بمنزلة الخلافة الإسـلامية الكبرى، ويطلق لقب عثمانى على كل فرد مـن أفراد البعثة العثـمانية بلا استثنـاء من أى دين أو مذهب، ودين الدولة العثمانية هو الدين الإسلامى ومع مراعاة هذا الأساس وعدم الإخلال براحة الخلـق والآداب العمومية تجرى جميع الأديـان المعروفة فى المماليك العثمانية بحرية تحـت حماية الدولة مع دوام الامتيازات المعطاة للجماعات المختلفة كما كانت عليه (المواد ١و٣و٨و١١).

ماهى النتائج التى نستخلصها من تحـليل الممارسة العملية للتعايش بين المسلمين والنصارى فى ظل الحكم الإسلامى؟

النتيجة الأولى هى أن هذا التعايش ماكان ليتحقق لولا أن طرفيه أراداه. وإذا كان المسلمون قد أقبلوا عليه انطلاقاً من تعاليم الإسلام، فإن النصارى أقبلوا عليه أيضا انطلاقاً من تعاليم النـصرانية وبتشجيع من كنيستهم. وقد حاول المؤرخون أن يفـسروا ظاهرة ترحيب نصـارى المنطقة بالفتـح العربى الإسلامى ، فأشـاروا كما قال أدمون رباط «إلـى الأصول السامية لـنصارى المنـطقـة التى كـان لابد لـها مـن أن تهيـىء النـفوس لهـذا النـفور نـحو المملكتين الـعظمين فى ذلك الحين (الروم والفـرس)، وهى التى دفعت سكـان سوريا و العـراق على الأخص، إلـى أن يتوسمـوا الخير وينـشدوا الخلاص على يد الفاتحين العرب، ليس فقـط من محنتهم الدينية، بل ومن ظلم الضرائـب وكثرتها التى كانت تـثقل كاهل المكلفين فـى أقطار الهلال الخصيب ووادي النيل [٢]. و قد كتب ميـخائيل السريانى بطـريق السريان

---

(٢) ادمون رباط مصدر سبق ذكره.

الأرثوذكس فى القرن الثانى عشر فى تاريـخه الطويل شهادة مؤثرة تتضمن نظـرة النصـارى لحكـم الروم الظـالم ونظـرتهم لـلفـتح الإسلامـى الذى حررهم من نير الروم. والحق أن إقبال الطرف الـنصرانى على التعايش كان هو «القاعـدة» ، وكذلك تبنى الـكنيسة لهـذه السياسة واتخـاذها المواقف التى تعبر عن تمسكها بعقد الذمة ووفائها بما يخصها منه.

النتـيجة الثـانية هى أن هـذا التعايـش بين المسلـمين والنصـارى فى ظل الحكم الإسلامى أثمر خيراً عظيماً علـى طرفيه وعلى المنطقة، وقدم نموذجاً فذاً على الصعيد العالمى .ويختلـف هذا النموذج الفذ عن النموذج الغربى الحـديث لـلتـعايـش بين الأديـان الذى بـرز بـعد الـثورتـين الأمريـكيـة والفرنسية فى أنه يقوم على الدعوة إلى الله سبحانه وعلى اعلاء شأن القيم الروحية وعلى تطبـيق الشرائع السماوية، بينما يقـوم الآخر على مايعرف بعلمانية الدولة وانتهاجها سياسـية«لادينية» . ولقد تمثل هذا الخير العظيم أعظـم ما تمثل فـى تشيـيد صرح الحضـارة العربيـة الإسلاميـة التى شيـدها المسـلـمـون والـنـصـارى، واتـبـاع الـديـانـات الأخـرى فـى الـدولـة الإسلاميـة.ومعلوم أن لـلكنيـسة النصـرانية دورا بارزا فـيها. وقد كـانت الديارات من مـراكزها [1] وإلى هـذه الحضارة انـتسب نصـارى المنطـقة وانتمـوا قديماً وحديـثاً . وقد عبر عـن هذا الانتسـاب وهذا الانتمـاء أخونا المطران جورج خضـر بقوله «حضارة أوروبا هى حـضارة الأوروبيين وأنا لـم أساهم فـيها. أنا فى أفضل حال صـديق العروس ولكنى لـست إياه. قد أتذوق أوروبـا ولكنـى لا أكونها، وإذا اسـتهلـكت ما تـنتج فهـى لاتفتـخر

(١) يراجع ما كتب عن هذه الديارات فى كتب تراثنا العربي.

بذلك، وقد افتخر إنما هى تفخر بما تنتج، وهذا ثمر اجتهادها هي. غير أنى على هذه الأرض ابن الحضارات التى توالت علينا منذ فجر التاريخ إلى اليوم، وورثتها جميعاً الحضارة الإسلامية .وأنا فى قلب هذه الحضارة منذ بزوغها، ورافقتها، وفى القرون الأخيرة علمتها..» [1] وما أروعه من تعبير. وتذكرنا النظرة التى تحكمه بنظرة ابن خلدون فى العمران التى استشهدنا بها.

النتيجة الثالثة: هي أن الخلل فى هذا التعايش، وهو الاستثناء، كان يحدث لأسباب داخلية فى بعض الأحيان، ولأسباب خارجية فى معظم الأحيان .و ترتبط الأسباب الداخلية دوماً بطغيان الحكم واستبداده ، وجمود الفكر وسيادة التقليد وعبادة الحرف. وفى ظل هذه الأحوال كانت معاناة النصارى لاتختلف في جوهرها عن معاناة المسلمين أخوتهم، وإن اختلفت فى الشكل . فالظلم والظلام حين يعمان لايفرقان بين نصرانى ومسلم . أما الأسباب الخارجية فقد ارتبطت بالغزو الخارجي، وبخاصة حين يستغل الدين، ويعمد إلى التفريق بين المسلمين والنصارى فى الوقت الذى يستهدفهم فى معاً. ويمكننا أن نسوق أمثلة كثيرة على ذلك من تاريخ الغزو الفرنجى لوطننا قبل تسعة قرون وعلى مدى قرنين، ومن تاريخ الغزو الاستعمارى الغربى الحديث لوطننا منذ قرنين. ويكفى أن نشير إلى مافعله الفرنجة الغزاة بالكنيسة فى انطاكية والقدس، وإلى استهداف« المبشرين الغربيين» حديثاً المسلمين والنصارى« بتبشيرهم» ،

---

(١) المطران جورج خضر«بحث المسيحية العربية والغرب»كتاب «المسيحيون ولعرب» ص٩٦

وسعيهم الدائب إلى تحويل أتباع الكنيسة الشرقية إلى كنائسهم الغربية. وقد حدث أن نجح هؤلاء الغزاة الخارجيون فى الإخلال بالتعايش بين المسلمين والنصارى كما جرى فى إمارة «الرها» أبان حروب الفرنجة ، ولكن يلفت النظر أن إرادة التعايش كانت تتغلب كما جرى عند تحرير الرها. وقد فعلت فعلها فى مواجهة الغزو الخارجى ومقاومته .والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخنا الحديث الذى حفل بالصور المعبرة عما نسميه اليوم الوحدة الوطنية بين المسلمين والنصارى.

وبعد .. فلقد شهد هذا القرن انتهاء العمل بنظام الخلافة الإسلامية، ومن ثم بنظام عقد الذمة. وحلت محل الدولة الواحدة دول كثيرة تبنت المفهوم الغربى الحديث للدولة، واعتمدت فيما اعتمدت نظام «الجنسية» . وطرأ بفعل هذا التغير تغير فى النظرة السابقة للتعايش وفى الممارسة العملية له. ودخلت فى لغتنا السياسية اصطلاحات غربية لم نعرفها من قبل ، فصار الحديث يجرى عن «أقليات» دينية ولغوية وعرقية، تجمعها كلمة «الإثنية» غير العربية، التى تبرز الفروق على عدة صعد فى وقت واحد . ونجمت عن ذلك حساسيات وتعقيدات اتجه البعض فى محاولته التغلب عليها إلى اعتماد اللادينية والقفز على دائرة الأنتماء الديني، فأوصلته محاولته إلى اصطناع تناقض بين الانتماء إلى الوطن والانتماءإلى الدين . والإنسان بطبيعته يجمع فى هويته بين الانتماء إلى عقيدته وإلى قومه وإلى وطنه. وقد أثر اعتماد اللادينية سلبا على القيم الروحية فى المجتمع وعلى البعد الروحى عند الفرد. وواضح من حاضرنا أن هذه المحاولة لن تصل إلى هدفها لأنها تخالف طبيعة الاجتماع الإنساني.

كيف نتعامل مسلمين ونصارى مع هذا الواقع الجديد؟ وكيف نعالج ما نجم عن ذلك التغير؟

هذا هو السؤال الذى يبرز أمامنا .والحق أن الحاجة ملحة إلى وقفة نواجه فيها حقائق.. واقعنا، ونقوم تجربتنا التاريخية فى التعايش ونستلهمها، ونطرح حلولاً ناجزةً، منطلقين كمؤمنين مسلمين ونصارى من اعتقادنا بأن الحياة لاتستقيم بدون دين، وبأن بين الأديان السماوية أساسامشتركا، وبأن العدل يتطلب الإيمان، وبأن علينا أن نتغلب على كل سوء فهم وعلى الأحكام المسبقة الخاطئة. ولنضع نصب أعيننا ذلك الصوت المنادى فى البرية «أعدوا طريق الرب واجعلوا سبله قويمة» وتلك الآية الكريمة ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ . ونستذكر موعظة الجبل «طوبى للرحماء فأنهم يرحمون . طوبى للساعين إلى السلام فأنهم ابناء الله يدعون.. أنتم نور العالم لا تخفى مدينة على جبل.. فليضىء نوركم هكذا للناس، ليروا أعمالكم الصالحة..» ونستذكر سورة العصر ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ وفى اعتبارنا أن عالمنا المعاصر بحاجة إلى قيم حضارتنا العربية الإسلامية التى شيدناها معاً مسلمين ونصارى.

«التعددية الدينية فى ظل الحضارة العربية الإسلامية»(•)

❖ مدخل

الحمد لله الذى خلق الإنسان وهداه النجدين وأعطاه الحق فى الاختيار، وبينّ له أن «لا إكراه فى الدين». والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله الذين جعل لكل منهم «شرعة ومنهاجا». واستفتح بالذى هو خير.

موضوع التعددية بأشكالها المختلفة مطروح بقوة فى عالمنا المعاصر الذى يعيش ثورة اتصال جعلت منه عالم الاعتماد المتبادل، وأبرزت فيه حقيقة تنوع مجتمعاته ونزوعها إلى التعارف والتعاون والوحدة. ويكتسب موضوع التعددية الدينية أهمية خاصة لأنه متصل بالبعد الروحى فى الإنسان.

إن تسليط الأضواء على «التعددية وضوابطها خلال العصور» بعد التعرف على كيفية تعامل الوحى معها، يساعدنا على رؤيتها من خلال الممارسة، توطئة لاستشراف آفاقها المستقبلية، ومطلوب من هذه الورقة أن تقوم بتسليط هذه الأضواء ومعالجة هذا الجانب فى اللقاء الإسلامى المسيحى السادس من «وجهة نظر إسلامية». وقد نظر كاتبها فى كيفية تناول الموضوع الذى يمتد فيه بعد الزمان قرونا كثيرة، فرأى أن يبدأ بوقفة أمام

(•) ألقيت هذا البحث فى اللقاء الإسلامى المسيحى الذى انعقد فى استامبول فى ٩/ ١٩٨٩ بدعوة من المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية.

مصطلح التعددية الدينية بغية تحديد مفهومه، وما يندرج ضمن دائرته، ثم يتعرض بإيجاز للأساس النظرى للتعددية فى الإسلام الذى كان الانطلاق منه فى ممارستها فى ظل الحضارة العربية الإسلامية، ليقوم بعد ذلك بقراءة تاريخية تحليلية نقدية لممارسة التعددية فى هذه الدائرة الحضارية على مدى اثنى عشر قرنا قبل أن تبدأ الدولة الحديثة بالحلول محل دولة الخلافة.

(١)

مصطلح التعددية الدينية

التعددية مصطلح حديث الظهور والاستخدام. وهو يعنى فى أى شكل من أشكالها «مشروعية التعدد، وحق جميع القوى والآراء المختلفة فى التعايش وفى التعبير عن نفسها، وفى المشاركة على صعيد تسيير الحياة فى مجتمعها». والتعددية الدينية تختص بالتعدد فى الدين والعقائد والشرائع والمناهج المتصلة به. ومفهومها يعنى أولا الاعتراف بوجود تنوع فى الانتماء الدينى فى مجتمع واحد أو دولة تضم مجتمعا أو أكثر، ويعنى ثانيا احترام هذا التنوع وقبول ما يترتب عليه من اختلاف أو خلاف فى العقائد. ويعنى ثالثا إيجاد صيغ ملائمة للتعبير عن ذلك فى إطار مناسب وبالحسنى بشكل يحول دون نشوب صراع دينى يهدد سلامة المجتمع.

إن مفهوم التعددية الدينية هذا يتضمن الإقرار بمبدأ «أن أحدا لا يستطيع نفى أحد»، وبمبدأ «المساواة فى ظل سيادة قانون». وهو يلتزم بمبدأ حرية التفكير والتنظيم واعتماد الحوار واجتناب الإكراه. والتعددية الدينية

وثيقة الصلة بالتعددية السياسية التى هى فى جوهرها «اعتراف بمشروعية التعددية الاجتماعية وحق تكوينات المجتمع فى الاختلاف، ويسعى كل منها للدفاع عن مصالحه المشروعة فى إطار سلمى، يعترف بنفس الحق للتكوينات الأخرى طبقا لقواعد يحترمها الجميع، وبلا إخلال بالوحدة الوطنية والتكامل القومى». ويلفت النظر أن عدم الاعتراف بالتعددية فى أشكالها المختلفة يسبب توترا و «احتقانا» قد يؤدى إلى صراعات دموية مسلحة فى المجتمع، كما أوضح الأمير الحسن بن طلال فى افتتاحه لندوة «التعددية السياسية فى الوطن العربى» التى انعقدت بعمّان فى ربيع ١٩٨٩م.(١).

يدعونا هذا المفهوم للتعددية الدينية إلى البحث فيها على أكثر من صعيد. فهناك أولا صعيد التعددية فى العقائد الدينية. وهناك ثانيا صعيد التعددية فى المسائل الدنيوية التى يعالجها الفكر السياسى والاجتماعى من منطلق دينى. وهناك التعددية داخل دائرة الدين الواحد، كما أن هناك التعددية خارج هذه الدائرة.

(٢)

الأساس النظرى للتعددية الدينية فى الإسلام

جاء الإسلام بنظرات حول الكون والحياة والإنسان سبق أن عرضنا لها فى حديثنا عن التعايش الدينى فى الحضارة العربية الإسلامية. ويمكننا أن

(١) منتدى الفكر العربى، أوراق ندوة التعددية السياسية فى الوطن العربى، مارس ١٩٨٩.

نستخلص من هذه النظرات أن مبدأ الاختلاف بين الناس هو أحد سنن الله في الكون، وهو واقع بمشيئته سبحانه، وقد أثبته القرآن الكريم. ويرتبط مبدأ الاختلاف هذا بمبدأ الحق في الاختيار الذى أقره الإسلام وأثبته القرآن الكريم أيضا بعد أن فطر الله الإنسان عليه. ويلفت النظر أن قصة آدم وزوجه كما أوردها القرآن الكريم تضمنت أول ممارسة لحرية الاختيار في تاريخ الإنسان. فقد نهاهما الله عن الأكل من إحدى شجرات الجنة، ولكنهما خالفا فأكلا منها. وعصى آدم ربه فغوى، وترتب على هذه المعصية خروجهما من الجنة وقول الله لهما ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(١). ويقول فهمي هويدى في مقاله «تعدد في الدين وفي السياسة» وهو يعلق على هذه القصة: «فتعبير هذه الآيات عن فعل آدم وزوجته بالأكل والمعصية، ثم التعبير باتباع الهدى أو الإعراض عنه، هذه التعبيرات مجتمعة تبين بوضوح أن الحق في الاختيار أمر فطر الإنسان عليه، ومارسه منذ كان». ويلفت النظر أيضا أن القرآن الكريم يثبت أن مخلوقات الله جميعا تسجد لله، إلا بني الإنسان، فإن منهم الساجدين ومنهم الكافرين، وقد قررت النصوص القرآنية أن الاختلاف ثابت بإرادة الله وحكمته ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(٢) ﴿وَلَوْ شَاءَ

---

(١) طه:١٢٣، ١٢٤.

(٢) هود: ١١٨.

رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعا أفأنت تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(١). كما قررت هذه النصوص أنه من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وأن لكم دينكم ولى دين، وأنه لا إكراه فى الدين، ويلاحظ فهمى هويدى وغيره ـ بحق ـ أن الإقرار هنا إيجابى ليس صامتا ولا سلبيا رغم أن الاختلاف هو فى صلب العقيدة أو فى الفكر. وقد نزلت آية ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(٢) فى قوم أرادوا أن يجبروا أبناءهم على الانتقال من اليهودية إلى الإسلام، فكان أن دعاهم الله إلى الالتزام بهذا المبدأ، وبقى أولادهم على يهوديتهم.

وتتجلى إيجابية هذا الإقرار بالاختلاف فى دعوة القرآن المسلمين أن يعدلوا مع من يعادونهم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٣). وكذلك فى الدعوة إلى يالتعامل مع الآخر بمقتضى البر والعدل ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٤). وقد أوضح القرآن ان الله يفصل بين أتباع الأديان يوم القيامة. وهكذا يعطى الإسلام التعامل الإيجابى مع عقائد الآخر ومذاهبه المغايرة وأفكاره بعداً عقيديا يستند إلى التوجيه والتكليف الإلهيين. وقد لاحظ بعض الباحثين أن القرآن أثبت كل نقد وجه إلى الإسلام وقت نزول الرسالة، حتى وصفه البعض

---

(١) يونس: ٩٩. (٢) البقرة: ٢٥٦.
(٣) المائدة: ٨ (٤) الممتحنة: ٨.

بأنه «خلّد الفكر المضاد بين دفتيه». «وهناك عدد من الآيات نزلت فى سياق تبادل الحجج بين النبى والمشركين فى شأن الدين الجديد، مثل قوله تعالى ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١)، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢). وقد فتح هذا التعامل الإيجابى الباب لتبادل النقد والتقويم فى سياق عملية الاقناع والتبشير برسالة الإسلام فضلا عن تثبيت العقيدة فى النفوس، كما يقول فهمى هويدى، ودفع بعض الباحثين المسلمين إلى الإقرار بحق الآخر فى نقد الإسلام على أن يتم هذا النقد- أو تبادل النقد- عبر الأساليب والقنوات المشروعة، وألاّ يؤدى ألى جرح مشاعر المؤمنين(٣).

(٣)

ممارسة التعددية الدينية فى تاريخنا

فى قراءتنا التاريخية لممارسة التعددية الدينية فى دائرة الحضارة الإسلامية، نحن مدعوون إلى أن نقارب الموضوع بنظرة متكاملة، فنعرض للبداية التاريخية ونتعرف على التفاعل الحضارى وننظر فى التعامل مع التعددية على الصعيد الشعبى وعلى صعيد الحكم وعلى صعيد الفقه. ولابد أن تجوب هذه النظرة أصقاع الدائرة الحضارية الإسلامية الممتدة، وتتبع الموضوع عبر مراحل زمنية تتالت فيها الحقب.

---

(١) البقرة: ١١١.

(٢) سبأ: ٢٤.

(٣) فهمى هويدى، مقال «تعدد فى الدين وفى السياسة» جريدة الدستور، مايو ١٩٨٩.

فى الفترة المدنية

لقد شهدت الفترة المدنية من البعثة البداية فى ممارسة التعددية الدينية. وكنا عرضنا لها فى بحثنا عن التعايش الدينى فى الحضارة العربية الإسلامية، فتحدثنا عن «الصحيفة» التى أملاها رسول الله ﷺ لإقرار العلاقات وتحديد الالتزامات فى المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية. وقد تضمنت هذه الصحيفة مبدأ إقرار حرية العقيدة إلى جانب مبدأ المساواة ومبدأ التراحم والتعاون ومبدأ سيادة القانون والعدل. وذكرت اليهود بالاسم لأنهم كانوا يعيشون فى المدينة وحولها، فنظمت حقوقهم وواجباتهم وكفلت لهم الأمن. وتحدثنا عن العهد الذى أعطاه رسول الله ﷺ لنصارى نجران. وقد كفل هذا العهد حرية الاعتقاد وممارسة الشئون الاقتصادية والمساهمة فى الأعمال، ووردت فيه كلمة «ذمة» مضافة إلى «محمد». وخير إيجاز لمضمونه هو الحديث الشريف «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» مع استثنائهم مما يمس المسائل الدينية ويتصل بها احتراما لما يعتقدونه. وانبثق عن «عقد الذمة» هذا نظام أهل الذمة، فالكتابى يصبح ذميا حين يبرم عقد معه، وينطبق من ثم عليه منطوق الحديث الشريف بما فى ذلك تولى المناصب العامة إلا ما اتصل بالإسلام نفسه مثل الإمامة والامارة. وهذا العقد عند المسلم مؤبد، ومن حق الذمى بموجبه على المسلمين أن يحمى المجتمع حريته فى العقيدة والسكن وحسن السمعة والعمل والتنقل، وألاّ يظلم ولا يؤذى ولا يكلف فوق طاقته(١).

---

(١) أحمد صدقى الدجانى، بحث «التعايش الإسلامى المسيحى فى الحضارة العربية الإسلامية»، أوراق اللقاء الإسلامى المسيحى الرابع.

أثناء الفتوحات

أرست هذه البداية أساس التعددية الدينية المتين. وجاءت الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين لتفسح المجال أمام تطبيق هذه التعددية في دائرة واسعة تضم أديانا ومذاهب ومللا ونحلا. وقد أقبل المسلمون على «التعايش» مع أصحاب العقائد الأخرى انطلاقا من تعاليم دينهم الإسلامي. وكان مما لفت نظر المؤرخين إقبال غير المسلمين على هذا التعايش الذي ما كان له أن يتحقق لولا إرادتا طرفيه. ومثل واضح على ذلك النصارى في بلاد الشام والعراق ومصر الذين أقبلوا على التعايش انطلاقاً من تعاليم دينهم وبتشجيع من كنيستهم. وكان المسيحيون عدة طوائف مختلفة يستند كل منها إلى تاريخ سحيق ويتمتع بهيكلية كهنوتية وتشريعات كنسية ومحاكم مذهبية، كما يقول ادمون رباط في بحثه «المسيحيون العرب في الشرق قبل الإسلام». وقد تلمس المؤرخون تعليلا لظاهرة ترحيب سكان البلاد المفتوحة بالفتح الإسلامي، فذكروا أن الأصول السامية لسكان سوريا والعراق دفعتهم إلى توسم الخير بالفاتحين العرب، وأشار المؤرخون إل ما عاناه أصحاب البلاد المفتوحة من وطأة الضرائب الثقيلة التي كان يجبيها الروم والفرس فنشدوا الخلاص منها،ووقف المؤرخون بخاصة أمام تطلع هؤلاء إلى حرية العقيدة التي يكفلها الإسلام ويحترمها المسلمون ويضمنها عقد الذمة. وقد استشهد أدمون رباط بأقوال تدلل على أن «سكان هذه الأقطار تقبلوا العرب بقلوب

رحبة، لأنهم رأوافيهم محررين لا غزاة»، ومنها قول ميخائيل السرياني بطريرك السريان الأرثوذكس في القرن الثاني عشر: «لأن الله هو المنتقم الأعظم، الذي وحده على كل شيء قدير، والذي وحده إنما يبدل ملك البشر كما يشاء، فيهبه لمن يشاء، ويرفع الوضيع بدلا من المتكبر، ولأن الله قد رأى ما يقترفه الروم من أعمال الشر، من نهب كنائسنا وديورنا، وتعذيبنا بدون رحمة، فإنما قد أتى من مناطق الجنوب ببني إسماعيل لتحريرنا من نير الروم...»، ومثلها شهادة يوحنا النيقوسي الذي تولى أسقفية نيقو في دلتا النيل بعد فتح مصر بقليل، وكذلك شهادة سوارس الأشموني الذي جاء من بعده(1).

نتائج

ماذا نستخلص من استحضارنا بداية ممارسة التعددية الدينية في دائرة الحضارة العربية الإسلامية؟

نستخلص أولاً أن وجود عقيدة تسلم بمبدأ الاختلاف بين الناس باعتباره إحدى سنن الكون واقع بمشيئة الله، وتتبنى من ثم مبدأ الحق في الاختيار، وتقرر حرية العقيدة فلا إكراه في الدين، وتحث على ايجابية التعامل مع الآخر، هو الضابط الأساسي في ممارسة التعددية الدينية الذي يعطيها بعدا روحيا إلهياً.

(1) أدمون رباط، بحث «المسيحيون العرب في الشرق قبل الإسلام»، كتاب المسيحيون العرب، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٦.

ونستخلص ثانيا أن وجود عقد يتم إبرامه بين جميع الأطراف المشاركين فى هذه التعددية ينظم حياتهم ويبيّن حقوقهم وواجباتهم، هو ضابط ضرورى فى هذه الممارسة يعطيها بعداً شرعياً قانونياً.

ونستخلص ثالثا أن وجود إرادة عند كل طرف لممارسة هذه التعددية بروح إيجابية وفق تقاليد مرعية، هو ضابط آخر ضرورى فى هذه الممارسة يعطيها بعداً اجتماعياً حضارياً.

إن هذا الذى نستخلصه من استحضار البداية التاريخية يوفر لنا المؤشرات التى نتبع على ضوئها الممارسة فى حقب تالية. ولقد كانت هذه البداية كما يقول أدمون رباط «فتحاً بذاتها فى عالم الفكر والدين.. وابتكاراً عبقرياً، وذلك أنه للمرة الأولى فى التاريخ انطلقت دولة هى دينية فى مبدئها ودينية فى سبب وجودها ودينية فى هدفها.. إلى الإقرار فى الوقت ذاته بأنه من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها، وذلك فى زمن كان يقضى المبدأ السائد فيه بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم»(١).

التفاعل الحضارى فى الدولة العربية الإسلامية

نتعرف على التفاعل الحضارى الذى حدث فى الدولة العربية الإسلامية فى ظل التعددية الدينية. فنجد أن هذه الدولة تكونت من أمم مختلفة فى كل منها «طوائف مختلفة لها شعائر وعادات خاصة، فمنهم

(١) المصدر نفسه.

يهود حافظوا على تقاليدهم وحرّموا التزاوج إلا منهم، ونصارى تمسكوا بشعائرهم وعاداتهم، ومجوس يقيمون هياكلهم ويوقدون نيرانهم» كما يقول أحمد أمين فى ضحى الإسلام. وكان لكل أمة من هذه الأمم المختلفة مزايا وصفات عرفت بها. ونجد أن التعددية الدينية كانت عاملاً أساسياً فى تحقيق تفاعل بين هذه الأمم أثمر عملية توليد بين الأجسام وبين العقول.

- التوليد والروح الإيمانية

وقد نظر أبناء هذه الأمم إلى عملية التوليد بين الأجسام نظرة إيجابية بفعل مناخ التعددية الذى يستند إلى عقيدة تقول بأن الناس سواسية كأسنان المشط وأنهم جميعاً لآدم ولا فرق بين واحد وآخر إلا بالتقوى، فلا مكان للعنصرية الخبيثة، وأقبلوا عليها وأشادوا بثمارها. وكان هذا شأنهم مع التوليد بين العقول بما يحدث فيه من تلاقح للأفكار يصفه أحمد أمين بقوله «فالفارسى يحمل عقلا فارسيا ثم يعتنق الإسلام ويتعلم اللغة العربية، فينشأ مزيج من العقلين تتولد منه أفكار جديدة ومعان جديدة. واليونانى النصرانى أو الرومى النصرانى أو العراقى اليهودى يخالط العربى المسلم ويتبادلان الرأى والقصص والفكرة فينشأ من ذلك فكر جديد. وهكذا.. والخلاصة أن لقاح العقول أنتج مخلوقات جديدة لها ميزاتها الخاصة كما كان الشأن فى توليد الأجسام». ويلفت النظر فى هذا التفاعل الحضارى الروح التى أحاطت به. فمع كل هذه الاختلافات المتنوعة كانت هناك روح واحدة ترفرف على العالم الإسلامى، وصفها

أحمد أمين بأنها «روح شرقية» توحد بين أفـرادها مهما اختلفت أجناسهم وأنواعـهم. وهـذه الروح هى الـتى أخضـعت مـا تمثلـه الحضارة الـعربـية الإسلامـية من الحـضارات الأخرى، فـأسبغت عـليه ثـوبا من روحـانياتـها والهـاماتـها. وصـبغة هـذه الروح لا مـادية جاءت بـها الأديـان من بـوذية ويهودية ونصرانـية، تؤمن بإله فوق العالم وترجو جـنة وتخاف نارا وترى أن وراء السعادة الدنيوية والشهوات الجســمية سعادة أخرى روحية، «فلما جاء الإسلام ونـشر سلطانـه على الممالك الـشرقية زاد هذه الـروح وقواها وعمل فى توحيدها. فقد كانت هـذه الأمم تخضع لقانون واحد ولنظام فى الحكم واحـد وتتكلـم بلغة واحـدة ويدين أغلـبها بديـن واحد، ورحلات العلماء فى منتهى القوة علـى صعوبة المواصلات، والرحالة يتبادلون الآراء والمعتقدات، ويدعـون دعوات دينية وسياسية. والحكام يـرسلون من مركز الخلافـة مزودين بـتعالـيم واحدة فـى جوهرهـا. كل هذا وحـد بين الأمم، وكون منـها ما يصح أن يـسمى أمة واحدة: لـها أدب وثقافة واحـدة وعلم مشترك»(١). وواضـح أن هذه الـوحدة هـى وحدة الـتنـوع القـائمـة علـى التعددية الدينية والتى لها روح نؤثر أن نسميها «الروح الإيمانية».

***

- التعامل مع التعددية على الصعيد الشعبى

نظر فى الـتعامل مع التعدديـة على مختلف الصـعد فى دائرة الحضارة

---

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، جـ١، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة.

العربية الإسلامية، فيستوقفنا بداية ما تميز به هذا التعامل على الصعيد الشعبى من حيوية، وما اتصف به من خلق كريم فى غالب الأحيان. فقد كانت مخالطة أهل الأديان المختلفة بعضهم بعضا، وبخاصة المسلمون والنصارى واليهود، قوية. وقامت بينهم صداقات جاء وصف بعضها فى أبيات من الشعر حفظها لنا الجاحظ فى كتابه «الحيوان»، أمثلتها ما قاله أبو الطمحان الأسدى الذى كان نديما لناس من بنى الحدّاء النصارى، وفيها:

بنو الصلب والحدّاء كلٌّ سَميدعٌ	له فى العروق الصالحات عروقُ
وإنى وإن كانوا نصارى أُحبُّهم	ويرتاح قلبى نحوهم ويتوقُ

ومن أمثلتها أيضاً ما قاله الفزارى فى ناس خالطهم من اليهود مشيراً إلى اختلاف العقيدة الذى لم يمنع من إنصاف الآخر وإقامة علاقة طيبة معه:

وجدنا فى اليهود رجال صدقٍ	على ما كان من دين مريب
لعمرك إننى وابنى غريضٍ	لمثلُ الماء خالطه الحليبُ
خليلان اكتسبتهما، وإنى	لخلة ماجدٍ أبداً كسوب

وقد نشط التعامل الشعبى فى «الديارات» التى أصبحت مراكز ثقافية نشطة، تقدم صورة لها ما جاء فى كتب التراث العربى عنها. وتضمن هذا التعامل حواراً وجدلاً ونقاشا من أمثلته ما دار بين المسلمين والنصارى.

وقد أشار البيرونى فى كتابه «الآثار الباقية» إلى رسالتين كتب أولاهما عبد الله بن إسماعيل الهاشمى يدعو بها عبدالمسيح إسحق الكندى إلى الإسلام، فرد عليه عبدالمسيح بالأخرى يدعوه إلى النصرانية، وذلك فى عهد المأمون. وأورد الجاحظ في رسالته «الرد على النصارى» أمثلة أخرى كما ذكر طرفا من أخبارهم. ويلفت النظر أن مؤرخى المسلمين عنوا بتاريخ النصارى وأتباع الأديان الأخرى. وقد مكن هذا التعامل الشعبى القائم على التعددية من تحقيق تعاون فعال بين أصحاب العقائد المختلفة لتشييد صرح حضارة أسهم الجميع فيها. ونسوق مثلا على ذلك حديث المؤرخين عن تمثل العرب فى مصر منجزات «مدنيتها المادية» حين قام القبط المصريون بالدور الأساسى فى بناء الأسطول العربى فى بداية العصر الأموى، «فبالإضافة إلى أولئك الذين عملوا فى دار الصناعة بالإسكندرية وجه والى مصر عبدالعزيز بن مروان ثلاثة آلاف من عمال صناعة السفن إلى تونس لإنشاء دار لهذه الصناعة، كما ذهب عدد آخر إلى الشام» حسبما نقل أبو سيف يوسف عن بتلر وغيره(١).

نموذج آخر للتفاعل الحضارى والتعامل الشعبى فى ظل التعددية الدينية التى عرفتها الحضارة العربية الإسلامية نجده فى الأندلس. وقد نشط فيه المستعربون من النصارى الإسبان الذين عاشروا العرب المسلمين وأقاموا في ظل الحكم الإسلامى. وكان السوادُ الأعظم من هؤلاء يقيم فى قرطبة

---

(١) أبو سيف يوسف، الأقباط والقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية.

وإشبيلية وأكثرهم فى طليطلة التى كانت عاصمة القوط القديمة. ودرج هؤلاء على أن يعيشوا فى أحياء خاصة بهم فى المدن، وإن كان ذلك لم يمنعهم من مخالطة المسلمين. وكانت اديرتهم وكنائسهم مما يروق للشعراء ارتيادها. وكان لهم رئيس يعرف بالقومس وقاض يعرف بقاضى النصارى يفصل فيما يكون بينهم من منازعات بمقتضى القانون القوطى. أما ما يكون من منازعات بين مسلم وذمى فالفيصل فيها للشريعة الإسلامية. وقد تغلغلت اللغة العربية فى أوساطهم، فكان أن ترجم القس فسنسيو «بتجسيس» القانون المقدس إلى العربية سنة ١٠٤٩، وترجم المستعربون الأناجيل الأربعة إليها أيضا. وكان دورهم من العوامل الهامة فى نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى أسبانيا المسيحية. ونشط اليهود أيضا فى هذا النموذج الأندلسى، فعظم شأن جالياتهم التى اشتغلت بالتجارة. وكان منهم الفلاسفة والعلماء وأشهرهم موسى بن ميمون. وأقبلوا على ترجمة الكثير من الكتب العربية إلى العبرية. وكانوا كالمستعربين واسطة لنقل مظاهر الحياة الإسلامية إلى اسبانيا المسيحية. وقد عرف أهل الذمة فى الأندلس فترات اتسم التعامل معهم بالشدة، كما حدث فى عهد المرابطين وعهد الموحدين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين(١). وكان ذلك متصلا بتعامل الحكم معها وبوجود عامل خارجى.

***

(١) لطفى عبدالبديع، الإسلام فى إسبانيا، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩.

التعامل مع التعددية على صعيد الحكم

احترم الحكم في الإسلام التعددية الدينية، واتخذ البداية التاريخية لممارستها في العهد النبوي نموذجا. وشاعت في أوساطه الأمثلة الرائعة التي ضربها الخلفاء الراشدون في تعاملهم مع أصحاب العقائد الأخرى، ومنها قصة عمر والذمي العجوز الضرير الذي اضطر للسؤال، وقصة أهل حمص مع الفاتحين العرب المسلمين التي رواها البلاذري، وقصة بطريق القبط بنيامين مع عمرو بن العاص في مصر، وقصص أخرى. ونشط الفقه الإسلامي في القرن الثاني الهجري في استنباط الأحكام المتعلقة بالتعددية الدينية وعقد الذمة الذي اعتبرت العهدة العمرية نموذجا له. وكانت العادة قد جرت إبان الفتح أن يبرم الفاتح عقدا مع وجهاء المدينة المفتوحة، وقد جاء في عهد عمر لأهل القدس «أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها.. ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم. ولا يضار أحد منهم. ولا يسكن ايلياء معهم أحد من اليهود..» وكان التعهد الأخير هذا بناء على طلبهم. وقد نجح الفقهاء في صياغة منظومة للعلاقات الاجتماعية من الناحية الفقهية بعد أن بحثوا في مسألة صلة الإسلام بالشرائع الأخرى ووظيفة الإسلام في العالم. كما يقول رضوان السيد في دراسته «المسيحيون في الفقه الإسلامي» وتوصلوا في بحثهم إلى إرساء مبدأين، الأول: الإسلام دين دعوة يهمه أن ينتشر ويجمع

ويستوعب ويوحد، والآخر: اعتباره نفسه كدين استمراراً للدين التوحيدى التاريخى، وإن اختلف من ناحية الشريعة. وقد شرح أبو حنيفة هذه الوظيفة التوحيدية فى رسالة العالم والمتعلم، فبيّن «أن رسل الله لم يكونوا على أديان مختلفة» وإنما على دين واحد. ولكن لكل منهم شرعته ومنهاجه. وقد أوصاهم الله جميعا بإقامة الدين وهو التوحيد ولا يتفرقوا فيه.. «فالدين لم يبدل ولم يحول ولم يغير، والشرائع قد غيرت وبدلت لأنه رُبَّ شىء قد كان حلالاً لأناس حرمه الله عز وجل على آخرين» وهكذا فان الله عز وجل «إنما بعث رسوله رحمة ليجمع به الفرقة، وليزيد الألفة، ولم يبعثه ليفرق الكلمة ويحرش الناس بعضهم على بعض. ويلاحظ رضوان السيد أن نظام الملل اعتمد «مبدئيات الإمام أبى حنيفة»، وبدأ فى مصر ابان العهد المملوكى بتعيين أربعة قضاة لمذاهب السنة الأربعة، ثم امتد ذلك إلى المذاهب الإسلامية الأخرى، فالطوائف المسيحية. فكان أن أعطى العصبيات والأعراف والطوائف استقلالية داخلية أكبر(١).

اعتمد تعامل الحكم مع التعددية الدينية قاعدة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» مع حرية الاعتقاد. فكان أن شارك أصحاب العقائد الأخرى من غير المسلمين فى تولى المناصب العامة إلا ما اتصل بالإسلام مثل الإمامة والإمارة، كما شاركوا فى مختلف نشاطات المجتمع، وقد برز من أهل

(١) رضوان السيد، بحث «المسيحيون فى الفقه الإسلامى»، كتاب المسيحيون العرب.

الذمة وزراء كثيرون فى مختلف العـهود. وكان أغلب أطباء الـقصور فى بغداد فى العصر العباسى نصارى. كـما كان أغلب الماليين فى الشام يهودا. واشتهر اليهود باحترافهم الصيرفة ودباغة الجلود والصياغة. ويشير حديث الجاحـظ عن النـصارى إلى مشاركتـهم الاجتـماعـية النـشطة وتـفاعلـهم الحضارى الإيـجابى. وقد تحـدث المقريزى فى كـتاب «المواعظ والاعـتبار» عن قبط مصر فى العهد المملوكى فأوضح أن «منهم كتاب المملكة، ومنهم التجار، والباعة، ومنهم الأساقفة والـقسوس ونحوهم، ومنهم أهل الفلاحة والزراعة، ومـنهم أهل الخـدمة والمهنـة». ويذكر المؤرخـون كيف قام قـبط الدواوين بـدور مهم فى الإدارة المـالية للـبلاد. بل إن أفرادا مـنهم تقـلدوا مناصب على قدر كبير من الأهمـية فى الإدارة المصرية. واشتهر عن بعض العائـلات القبطـية أن أبناءهـا تتابعـوا على المنـصب نفسـه لثلاثة أجـيال أو أربعة، كما أورد أبو سيف يوسف فى كتابه «الأقباط والقومية العربية». وقد شمـلت قـاعدة «لـهم مـا لنا» حـق غيـر المسـلمين فـى التـبشـير والـدعوة لعقائدهـم. ومما حفظه لنا تاريخ المـغول أن عددا من المبشرين الـنسطوريين النـصارى جـاءوا من الدولـة الإسلاميـة فى الـقرن الحادى عـشر الميلادى ليبشروا بالنصرانية، فكان أن تنصرت عدة قبائل مغولية (١).

الخلل فى ممارسة التعددية

كان احترام الحكم الإســلامى للتعددية الدينية هـو القاعدة. وكما يقول

---

(١) أحمد أمين، وأبو سيف يوسف.

المطران جورج خضر فى تعقيبه على بحث ادمون رباط «المسيحيون فى الشرق قبل الإسلام»: «ترك المسلمون العرب الناس على مذاهبهم. طبعا يمكن أن يكون حدث ضغط فى عهد هذا أو ذاك من الخلفاء الأمويين أو العباسيين، لكن القاعدة كانت فى ترك الناس على مذاهبهم» (١). فمتى كان يحدث الاخلال بهذ ه القاعدة؟.

لقد سبق أن أوضحنا فى دراستنا عن التعايش الإسلامى المسيحى فى الحضارة العربية الإسلامية، «أن الخلل فى هذا التعايش، وهو الاستثناء، كان يحدث لأسباب داخلية فى بعض الأحيان، ولأسباب خارجية فى معظم الأحيان. وترتبط الأسباب الداخلية دوما بطغيان الحكم واستبداده، وجمود الفكر وسيادة التقليد وعبادة الحرف. وفى ظل هذه الأحوال كانت المعاناة تعم غير المسلمين والمسلمين على السواء، وإن اختلفت فى الشكل. فالظلم والظلام حين يعمان لا يفرقان بين نصرانى ومسلم، أما الأسباب الخارجية فقد ارتبطت بالغزو الخارجى، وبخاصة حين يستغل الدين فيه، ويعمد إلى التفريق بين المسلمين والنصارى فى الوقت الذى يستهدفهما فيه معا».

ويمكننا أن نسوق مثلا للإخلال بقاعدة التعددية ما حدث فى بعض فترات العهد المملوكى فى مصر، لنتتبع من خلاله المتغيرين الداخلى والخارجى، مستفيدين بخاصة من الدراسة التحليلية التى أجراها أبو سيف يوسف حول «القبط فى عصر المماليك: دراسة حالة».

(١) جورج خضر، المسيحيون العرب، مصدر سبق ذكره.

شهدت مصر متغيرا داخليا فـى العهد المملوكى الذى بدأ عام ١٢٥٠م، فى محـيط الزراعة التـى أهملها المـماليك لحـساب التجارة. وقـد أدخلت الادارة المملوكية تـعديلات جسيمة على نظام حيـازة الأرض، فتغير وضع الفلاح. وشمـل المتغير الداخـلى مستوى الدولـة حيث شكل المـماليك فى قمة الحكـم مجتمعا مغـلقا تقوم بينه وبـين العامة حواجز. وقد احـتل قبط الدواوين مكـانة هامة فى الادارة، واشتـهر منهم عدد مـن الوزراء، وذلك لخبرتهم الـتقليدية، الأمر الذى مـنحهم وضعا متمـيزا فى الجهاز الإدارى، وجعلهم ينتسـبون واقعيا إلى «الحكام» بالمعنى الواسع ونجـم عن هذا المتغير الداخلى تفجر تناقضات، منها ما هـو بين السلطان وكتّابه الأقباط، ومنها ما هو بين أهل القلم المسلمين وهؤلاء الكتّاب، ومنها ما هو بين فئات الشعب وبخـاصة الفـلاحون والعـامة فى المـدن وبين هؤلاء الـكتاب. وقـد لاحظ دونالد ريتشـاردز فى كتابه «البيروقراطيـة القبطية فى العهـد المملوكى» أن التنـاقض الأول كان يتفجـر حين تضخمـت ثروات بعض كبار المـوظفين القبـط وتعاظم نفـوذهم، ويؤدى هذا التـفجر إلى تـعرضهم للـمصادرات العـنيفـة وغيرهـا من إجراءات الـبطـش. وطبيـعى أن هذه الإجـراءات لم تقتصر عـليهم بل شـملت أمراء منـافسين للسلطان أو موظفـين مسلمين أو علماء دين. أمـا التناقض الثانى فقد تـفجر مع نمو طائفة أهل الـقلم فى ظل ازدهار المدن الإسلامية، وتطلع أفرادها إلى أن يكون لهـم نصيب متزايد من الوظائـف فى الدولة لأنها مـصدر القوة والثـروة. وكان هذا التفجـر يأخذ

صوراً مختلفة، منها ما هو دينى ومنهـا ما هو سياسى اجتماعى، ومن أمثلته كتاب ابن دريهم الذى يـندد فيه بسلطة هؤلاء القبط الإداريين وبـتمكينهم من أنفاق مـوارد بيت المال فى وجوه لا تـقرها الشريعـة. وقد حاول المؤرخ ابن تغـرى بردى أن يبرر استـخدامهم مؤيـدا وجهة نظـر السلطنـة «لأنهم يلمون بكل شـئون الإدارة، والحكام فى حاجة إليهم». أما البـوصيرى فنظر إلى الموضوع نظرة شاملة فدعا السـلطان إلى إصلاح الفساد الداخلى «وأن يترك جـهاد المغول الـصليبـيين ويتفرغ لجـهاد قبط الـدواوين وأمثالـهم من اليهود وأثرياء المسلـمين وكبرائهم». أما التناقض الثالث فـكان يتفجر حين يعمد الحكم إلى إثقال كاهل المحكومـين بالضرائب، ويكلف الجباة الأقباط بتحـصيلها، فيـشتد سخط الـعامة عليهـم، ثم يتسع لـيشمل أقباطـاً آخرين بتحريض من المقـلدين، ويأخذ شكل انتفاضات عنيفـة تتضمن اعتداءات. وكان بعض الـسلاطين يتغاضى عـن هذه الاعتداءات خوفا مـن أن يتحول السخـط الشعبى إلـى رموز السلطة ذاتـها، وقد يعمـد الحكم إلى التـهدئة بعزل قبط الدواوين، ولـكنهم كانوا سرعان ما يعودون إلى أعـمالهم لتعذر الاستغناء عن خدماتهم(١).

ظهر المتغير الخارجى بشكـل واضح إبان حروب الفرنجة. وكانت أمور أهل الذمة قبل ذلك تسير سيرها المعتاد فى بلاد الشام ومصر. وقد شهدت انتـعاشا فى الـعهد الفـاطمى الذى شـجع التـجارة المسيـحية. ويذكـر ابن

(١) أبو سيف يوسف عن آخرين، مصدر سبق ذكره.

العميد أن الخليفة العزيز بالله اتخذ له زوجة مسيحية اسمها أراميس، وكان أخواها بطريقين على بيت المقدس والقاهرة، وقد استوزر عيسى بن نسطورس فى مصر وأناب عنه فى بلاد الشام يهودياً هو منشا بن إبراهيم، كما أورد أحمد رمضان محمد فى دراسته «المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية». ولم يخل الأمر أحياناً من حدوث تنافس بين أهل الذمة أنفسهم يتخذ مظهر عنف، إلا أن تأثيره كان قليلاً إذا قيس بصراع العصبيات الأخرى، وكان يحدث لأسباب مادية أو سياسية أو اجتماعية.

عمد الفرنج إلى إيغار صدور الطوائف المختلفة من أهل الذمة. ونجحوا أحياناً مع بعضهم، وفشلوا فى أحيان أخرى. ومما يذكر أن البطريرك الأرثوذكسى الأنطاكى فى القرن العاشر كان مؤيداً للحمدانيين ضد الروم- كما يلاحظ المطران جورج خضر ـ وحين استعاد صلاح الدين أنطاكية من الفرنج أعاد معه البطريرك الأرثوذكسى إليها. وكان الروم الأرثوذكس قد انفصلوا عن بيزنطة مع الفتح العربى انفصالاً كلياً. وقد أقدم الفرنجة على إلغاء البطريركية الأنطاكية، وعينوا بطريركاً لاتينياً فى القدس حين استولوا عليها عام ١٠٩٩، وأبعدوا الكهنة الأرثوذكس والأرمن والسريان والأقباط عن كنيسة القبر المقدس. «ولم يعترف الإكليروس الأرثوذكسى بسلطة اللاتين على كنيسة أنطاكية، وأقام بطاركة تولوا الشرعية فى الخارج. وحين خرج اللاتين من القدس سنة ١١٨٧ كان

هناك بطريرك أرثوذكسى مستعد ليتسلم مهامه فيها». كما يذكر المطران جورج خضر فى بحثه «المسيحية العربية والغرب». ولكن فرنج الساحل نجحوا فى جذب الكسروانيين. وقد كان هؤلاء مصدر قلق للدولة فى بعض الأحيان بسبب عصبيتهم، ووقوفهم مع أعدائها الخارجيين[1].

برز أثر هذا التغير الخارجى فى مصر إبان حروب الفرنجة المتأخرة التى استهدفت مصر وصولاً إلى بيت المقدس. وعمل الفرنجة لفصل الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المصرية وضمها إلى الكنيسة الكاثوليكية كى يستعينوا بالحبشة فى الإطباق على مصر من الجنوب بينما يهاجمونها هم من الشمال. وقد فشل مشروعهم لأن ملوك الحبشة كانوا يقيمون علاقات طيبة مع سلاطين مصر تقوم فيها روابط دينية وتجارية وثقافية. ولكن الأمر لم يخل من فترات حدث فيها التوتر بين الحبشة ومصر كما جرى فى عهد الملك «زرع يعقوب» الحبشى الذى دعته الكنيسة الكاثوليكية للاشتراك فى مجمع فلورنسا عام ١٤٣٩ التوحيدى. ولم يلبث أن عاد إلى سابق علاقات الود مع مصر، وقد تضمنت رسالة له إلى السلطان المصرى التأكيد على أن يعامل الحاكم مسيحيى مصر بمثل ما يعامل حاكم الحبشة مسلميها والتذكير بأن النيل ينبع من الحبشة، كما يورد أبو سيف يوسف عن دراج[2].

كانت المؤثرات الأجنبية المرتبطة بالغزو الخارجى ذات أثر سلبى بالغ

(١) أحمد رمضان محمد، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام وعصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزى للكتب الجامعية بالقاهرة، ١٩٧٧.

(٢) أبو سيف يوسف وآخرون.

الخطورة على مناخ التعددية الدينية. وقد أشرنا فى دراستنا عن «التعايش» إلى ما فعله الفرنجة الغزاة بالكنيسة فى أنطاكية والقدس، وإلى نجاحهم أحيانا فى الإخلال بالتعايش بين المسلمين والنصارى كما جرى فى إمارة الرها إبان حروب الفرنجة. ويتضح من دراسة حالة مصر فى العهد المملوكى مدى الأثر السلبى الذى حدث على وضع القبط بسبب هذه المؤثرات. فقد كان الفرنجة يعاملون نصارى الشرق معاملتهم للخوارج فحرموهم حقوقهم المحلية التى كانت لهم فى ظل الحكم الإسلامى، كما يلاحظ عزيز سوريال عطية فى كتابه «العلاقات بين الشرق والغرب». ولم يفرق الفرنجة بين مسلم ونصرانى حين نزلوا الفرما أواخر العصر الفاطمى وقتلوا من فيها. وهلك كثير من القبط فى إحراق الفسطاط خشية وقوعها فى أيدى الفرنجة. وعانت الكنيسة القبطية الكثير من جراء محاولات الفرنجة تحريض حكام الحبشة على مصر، واشتد قلقها فيما بعد حين حاول البرتغاليون إقناع الحبشة بتحويل مجرى النيل ويظهر هذا القلق فى نصوص «وصايا وتواقيع للبطاركة» أوردها القلقشندى فى صبح الأعشى. وأوجد الخطر الخارجى هذا ميلا لتحريك نوازع التعصب بين عامة المسلمين والحنق على النصارى بعامة دون تمييز. ولكن يلفت النظر أن إرادة التعايش كانت هى الأقوى، كما حدث عند تحرير الرها. وقد تغلبت فى حالة مصر فازدهر الانتاج القبطى العربى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، وجرى وضع الكتب الموسوعية فى الفقه واللاهوت

والتاريخ ونظم الدولة. وكان وجود القبط فى مختلف مستويات السلم الإدارى للدولة إيجابيا في مجمله. وتجلى اختيار القبط فى الوقوف إلى جانب حكامهم واخوانهم فى الدفاع عن البلاد، وفى دور إيجابى قامت به الكنيسة القبطية على هذا الصعيد.

نتائج

ماذا نستخلص من دراستنا للخلل الذى يصيب التعايش فى ظل التعددية الدينية بفعل متغيرات داخلية وخارجية؟

نستخلص أولاً أن المعاناة الناجمة عن هذه المتغيرات تعم الجميع، فالمسلمون فى مثل مصر الذى عرضناه لم يكونوا فى مجموعهم أفضل حالا من القبط. وقد ذكر المقريزى كيف أوقع أحد السلاطين «بعرب الصعيد، وأذل سائر عرب الوجهين القبلى والبحرى، وأفناهم قتلا وأسرا وسبيا».

نستخلص ثانياً أن العوامل السياسية والاقتصادية تفعل فعلها فى هذا الخلل، وأنّ ضعف الشعور الدينى القائم على الوعى يفسح المجال له.

نستخلص ثالثاً أن غياب القيادة الحكيمة يمكن من تفاقم الخلل.

إن هذا الذى نستخلصه يشير إلى الضوابط التى يمكن أن تضبط ممارسة التعددية الدينية حين تهب على المجتمع أعاصير تهدد هذه الممارسة بفعل أسباب داخلية وأخرى خارجية.

ضوابط

الضابط الأول هو وجود مؤسسات تدافع عن العقد المبرم بين الأطراف

المشاركين فى هذه التعددية حين يتعرض لانتهاكات حكام أفراد. ومثل على ذلك الموقف الذى وقفته شياخة الإسلام فى الدولة العثمانية حين وقع فى خاطر السلطان سليم الأول أن يُهجِّر بعض أتباع الديانات الأخرى وسط المعارك التى خاضها . فقد حاجه زنبيلى على أفندى شيخ الإسلام وقال له بلا محاباة :ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية، وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم .وأمثلة أخرى مواقف الكنيستين الأرثوذكسية والقبطية حين حاولت قوى خارجية استمالتها ضد الحكام فى وطنها.

الضابط الثانى وجود قيادات فى أوساط الحكام من أهل السيف وأهل القلم تتصدى لمعالجة الخلل الذى يصيب التعايش، وتنشر الوعى بين الناس بأخطار الفرقة، وتعمل الاحياء الروحى، فتقدم نموذجا بسلوكها على ذلك كله. وقد جسد الأمير عبدالقادر الجزائرى نموذجا رائعا لمثل هذه القيادات فى سلوكه أثناء نشوب الفتنة الطائفية فى بلاد الشام عام ١٨٦٠ بتحريض قوى خارجية .

الضابط الثالث وجود تعاون بين أهل الحل والعقد فى جميع الأطراف المشاركة في التعددية الدينية لتغلب الوحدة على الفرقة، وتجسيد إرادة ا لتعايش، والوقوف صفا فى وجه الخطر الخارجي.

***

استمرت ممارسة التعددية الدينية فى الدائرة الحضارية الإسلامية.

إبان الدولة العثمانية . ثم لم تلبث أن طرأت تطورات أساسية على هذه الممارسة بفعل تنامي المؤثر الخارجي اقترنت بتحولات اقتصادية وسياسية، وبفعل تغلغل مفاهيم الدولة الحديثة التى بدأت بالحلول محل دول الخلافة.

لقد أتاحت الدولة العثمانية في أوائل عهودها بحكم بنيتها، استقلالية واسعة للملل الدينية والعصبيات المحلية. ذلك أنها قامت على نظام للجند والجباية وتمثل مؤسسي للشريعة وفق المذهب الحنفى . فكانت ممارسة التعددية الدينية تتم بصورة مرضية، وقد أثمرت أوضاعا حسنة تحدث عنها الرحالة الغربيون الذين زاروا البلقان فى القرن السادس، كما أورد برنارد لويس فى كتابه السياسة والحرب [١] . وكانت هذه الأوضاع ذات سحر قوى فى أوساط أوروبية مجاورة ممزوج باستشعار الخطر، ويظهر ذلك فيما نشره مارتن لوثر عام ١٥٤١ محذرا بأن الفقراء المضطهدين على أيدى الملاك والجشعين يفضلون العيش على الأرجح فى ظل الأتراك. ويسجل للدولة العثمانية فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى استقبالها الكريم لليهود الإسبان الفارين من وجه محاكم التفتيش، والسماح لهم بالاستقرار فى مختلف الولايات العثمانية، ومعاملتهم وفق مبدأ «لهم ما لنا».

(١) وجيه كوثرانى، بحث «المسيحيون من نظام الملل إلى الدولة الحديثة»، كتاب المسيحيون العرب.

اعتمـدت الدولة العثمـانية فى ممارستـها للتعدديـة الدينية «نظـام الملل» الذى أسسه محمـد الفاتح عام ١٤٥٣. وجاء هذا النظام تطـويرا لنظام أهل الذمة، وعهد بمقتضاه إلى بطركيات الطوائف المسيحية بحقوق الولاية على جميع الأمور الـدينية والتعليميـة والاجتماعية الطائفيـة بما فى ذلك الزواج والميراث والأوقاف والتعداد بجميع السلطات الموكولة لشيخ الإسلام فيما يتعـلق بالمسلـمين، كما أورد أبو سيـف يوسف عن عطـية فى كتابـه «تاريخ المسيحية الشرقية». ولم يلبث المؤثر الخارجى أن نجح فى اختراق هذا النظام بالحصول على امتيازات كانت فى أول أمرها منحة من دولة قوية ثم تحولت مع ضـعف الـدولة الـتدريجـى إلى سـيف مـسلـط عليـها تحـملـه الدول الأوروبيـة الكبرى، وتـلوح به مـوظفة هذه الامـتيازات بمـا يخدم أهدافـها التوسعية. وقد عمدت هذه الدول إلى اجـتذاب بعض الملل اليها وزعزعة ولائهـم للدولة، وتـبنت مـشروعا توسـعيا نمـا فى سيـاقه مشروع «الـدولة ال طائفيـة». وهو على حد قول وجيه كـوثرانى فى دراسته «المسيـحيون من نظام المـلل إلى الدولـة المحدثة» مشروع يـقوم على السـيطرة وعلـى تحويل الوحدة المـتنوعة إلى وحـدات منفصلـة ومتناحرة، وعـلى تحويل التـعددية المتوازنة فى إطار حضارة توليفية واحدة هى الحضارة العربية الإسلامية إلى تعدديـة تقوم على الاسـتلاب والتمويـه والتشويـه الثقافى والانـسلاخ عن الأصول والجذور عبـر قشرة الاستهلاك الغـربى. وقد تشكلـت ركائز هذا المشروع فى سيـاسة مناطق النفوذ الدولـية، وسياسة السيطـرة على السوق،

وتكثيف الاختراق الثقافى بين المجموعات المللية عبر النشاط التبشيرى التعليمي، وسياسة «الحماية» المدعاة من قبل الدول الأجنبية للطوائف عبر تحويلها من «ملل» إلى «أقليات» (١). وهكذا تم اختراق نظام الملل الذى شهد قبل ذلك بروز سلبيات فى ممارسته مثل بيع المناصب والرشوة كانت سببا فى إضعافه. وبدأت الدولة العثمانية بعد هذا الاختراق تشهد تعددية جديدة مختلفة عن التعددية الدينية التى وجدت فى دائرة الحضارة العربية الإسلامية، وتنتسب إلى التعددية التى تتبناها الدولة الحديثة. وقد شهدت الدائرة الحضارية العربية الإسلامية منذ ذلك الحين احترام تفاعلها مع حضارة الغرب فى عالم متغير.

***

واضح أن مفاهيم الدولة الحديثة هى اليوم السائدة فى عالمنا. وهى مفاهيم منطلقة من رؤية «علمانية غربية» للعالم فى غالبيتها، تغلب الانتماء إلى دائرة الوطن على انتماءات الإنسان الأخرى، وطبيعى أن تكون تعدديتها من ثم مختلفة. وقد طرحت ممارسة هذه التعددية الجديدة قضايا كثيرة تبرز الحاجة عند التعامل معها إلى استحضار ممارسة التعددية الدينية التى تقوم على وجود عقيدة تسلم بمبدأ الاختلاف بين الناس. ووجود عقد يتم إبرامه.. ووجود إرادة للممارسة بروح إيجابية.. وأخيرا بوجود «روح إيمانية» هى حصيلة ذلك كله.

---

(١) المصدر نفسه.

إن استحضار ممارسة التعددية الدينية بأركانها الأربعة هذه يساعدنا على معالجة هذه القضايا التى تواجهها المجتمعات «الوطنية»، وبخاصة قضية ما يسمى بالأقليات أى الجماعات التى تنشأ على تقاليد ثقافية ومعتقدات دينية عبر تتابع تاريخى مغايرة لتقاليد الأكثرية الثقافية ومعتقداتها. والحق أن هذه الممارسة فى ظل الحضارة العربية الإسلامية تدعونا عند التعامل مع هذه القضية إلى التمسك بمبادىء أساسية تحدد المنطلقات والحقوق والواجبات.

لابد من التمسك بمبدأ كرامة الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(١). فهذه الكرامة هى لكل مخلوق من بنى البشر، أيا كان لونه أو لسانه أو معتقده أو نمط حياته، وهى أيضا لكل جماعة بشرية.

لابد من التمسك بمبدأ وحدة أصل البشرية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ والانطلاق منه فى التعامل مع مبدأ الاختلاف بين الناس ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾(٢). فكلنا لآدم وآدم من تراب الأرض التى منها خلقنا الله وفيها يعيدنا ومنها يخرجنا تارة أخرى.

لابد من التمسك بمبدأ التعارف وصولا إلى التعاون على البر والتقوى ﴿لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(٣). فعبر الاختلاف والتنوع تتحقق الوحدة والتعاون تجسيدا للأصل الواحد لإعمار الأرض. وهكذا فإن الجميع

---

(١) الإسراء: ٧٠ (٢) الحجرات: ١٣ (٣) المائدة: ٢

مدعوون أفرادا وجماعات لقبول التنوع وحمايته والاعتزاز به وتقدير ما يتضمنه من غنى.

إن هذه المبادىء تكفل حق كل فرد أو جماعة فى الوجود وحقه فى الوطن وحقه فى الثقافة وحقه فى الاعتقاد وحقه فى العبادة. وهى تؤكد واجب كل فرد أو جماعة فى التعاون واحترام حرية الآخر فى الاختيار وممارسة حقوقه. وهى تدعو إلى اعتماد الحوار وسيلة للتعارف ولمعالجة سوء الفهم والمشكلات. وواضح أن على المؤمنين بالله مسئولية الدعوة إلى الالتزام بذلك كله. وإن مما يبشر بالخير هذا التوجه للحوار بين المؤمنين بالإسلام والمؤمنين بالنصرانية. كما يلفت النظر أن اللقاء يتحقق على هذه المبادىء التى تحدثت عنها وثائق مسيحية ارثوذكسية وكاثوليكية نذكر كمثال لها رسالة قداسة البابا فى مطلع عام ١٩٨٩م بشأن احترام الأقليات. فلنعمل على تطبيق هذه المبادىء بروح الإيمان.

حصيلة الحوار الإسلامى المسيحى في مرحلة الحرب الباردة

❖ مدخل

تتجه الأنظار مرة أخرى هذه الأيام إلى الحوار بين الأديان بعامة وإلى الحوار الإسلامى المسيحى بخاصة، فى هذه المرحلة الجديدة التى دخلتها العلاقات الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة منذ مطلع تسعينات القرن العشرين. وذلك بفعل تبلور اقتناع غالب بدور «القيم الروحية» فى «إسعاد الإنسان» وبناء شخصيته المتوازنة القادرة على مواجهة ضغوط متزايدة يتعرض إليها فى هذا العصر؛ وبضرورة لقاء «المؤمنين» بهذه القيم الروحية، لإزالة سوء الفهم بين أتباع الديانات وتعزيز تعارفهم وصولاً رلى تعاونهم على البر والتقوى ومواجهة «أخطار» ماثلة تتهدد الإنسان وكوكبنا الأرضى بالفناء؛ وبقدرة «الدين» على الإسهام فى نشر ثقافة تتبنى قيم الحوار والحرية والعدل والسلام وقد شهد عالمنا فى السنوات الثلاث الماضية عدداً من «اللقاءات» فى إطار هذا الحوار وضعت نصب العين انتصار هذه القيم العلا.

سبب رئيسى آخر ساهم فى توجه الانظار للحوار الإسلامى المسيحى بخاصة، هو أن هذه المرحلة الجديدة فى العلاقات الدولية تشهد «محاولة مجموعة نشطة» فى دائرة الحضارة الغربية يقوم بها «البعض» هناك لإقناع

الغربيين بأن «الإسلام» اليوم هو الخطر الأكبر الذى يتهدد الحضارة الغربية بعد زوال خطر الشيوعية بانهيار الاتحاد السوفييتى. وهذا «البعض» يتضمن «كُتاباً» تفننوا فى عرض أفكارهم وإثارة ما شرحه ارسكين تشايلدز فى فصل «فقدان الذاكرة والخصام» من كتابه «الغرب والإسلام»، وتنظير «صراع الحضارات» وخطر «الإسلام والكونفوشوسية»؛ كما يتضمن «سياسيين» عنصريين غربيين؛ والحركة الصهيونية فى الغرب. وقد رأينا كيف تحرك «القادة الإسرائيليون» فى السنوات الثلاث الماضية بين مختلف أنحاء عالمنا لتعميم هذه الفكرة على دول كثيرة زاروها. وكثيرة هى الأصوات التى انطلقت فى الغرب تنبه إلى خطورة هذه المحاولة، وترفض قرن «الإرهاب بالإسلام»، وتحذر من أن الانسياق وراء التحيز والعنصرية والعداوة يحمل فى طياته أخطاراً رأينا تجسيداً لها فى جرائم الحرب العنصرية التى يشنها الصرب على المسلمين البشناق جيرانهم فى البوسنة والهرسك. وقد أطلق هذه الأصوات مفكرون غربيون وسياسيون ورجال دين.

الحاجة إذاً لوقفة أمام «الحوار الإسلامى المسيحى» فى إطار الحوار بين الأديان، نستحضر فيها بروز فكرته فى عالمنا المعاصر ومساره فى أربعة عقود من السنين، ونتأمل بنظرة نقدية حصيلته بغية تقويمها. ثم ننظر فى مدى الحاجة إليه اليوم، ونبحث فى منطلقاته وأهدافه وموضوعاته وصيغه والمعنيين به بغية بلورة المفاهيم الفكرية والروحية الكفيلة بتقريب وجهات النظر بين أتباع الديانتين السماويتين فى العصر الحاضر.

ـ بروز فكرة الحوار الإسلامي المسيحي في عالمنا المعاصر ومساره

برزت فكرة الحوار الإسلامي المسيحي في عالمنا المعاصر مع بداية «عصرنا» إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد تفاعلت في هذا «العصر» ثورة «التقنية» على صعيد العلم «وثورة التحرير» على صعيد السياسة، وما أسرع ما نشبت في دائرة الحضارة الغربية «حرب باردة» بين دول غربية تدين بالرأسمالية و «الليبرالية» ودول أوروبية شرقية تدين بالماركسية، اصطلح على تسميتها «الغرب والشرق». فكان أن اتجه الفكر السياسي في الغرب الرأسمالي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية إلى طرح فكرة مباشرة «حوار إسلامي مسيحي» للبحث في مشكلات عالمية تواجه المسيحيين والمسلمين معاً ودول الغرب ودول العالم الإسلامي التي استقلت، وللوقوف في وجه انتشار «المَدّ الماركسي الشيوعي» الذي تحاول ماديتّه «هدم الاعتقاد في القيم الروحية»- على حد تعبير «بايارد دودج» مدير الجامعة الأمريكية في بيروت سابقاً في تقديمه لأعمال «مؤتمر الثقافة الإسلامية في علاقتها بالعالم المعاصر» أوائل الخمسينات الذي انعقد في جامعة برنستون وتضمن في طياته «حواراً إسلامياً مسيحياً».

حين نستحضر مسار «الحوار الإسلامي المسيحي» في مرحلة الحرب الباردة وننظر في المناخ الذي أحاط به، نجد بداية حدوث «لقاءات» كثيرة في إطار هذا الحوار. وقد قام د. ناصر الدين الأسد رئيس مؤسسةآل البيت

«المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية فى الأردن» بعمل حصر لهذه اللقاءات ودراسة ما صدر عنها حين باشر المجمع نشاطاً على هذا الصعيد.

نستطيع أن نُميّز فى هذه المرحلة بين فترتين يفصل بينهما عام ١٩٧٣ الذى شهد حرب رمضان، فيما يتعلق بالمناخ الذى أحاط بالحوار الإسلامى المسيحى كما هو الشأن مع «الحوارات» الأخرى التى حدثت حول أمور اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو سياسية بين «معنيين» فى العالمين الغربى والإسلامى. كما نلاحظ أن المبادرة فى الدعوة لهذا الحوار جاءت فى غالب الأحيان من أطراف مسيحية غربية، حددت إطاره فى ضوء أهداف معينة استهدفتها منه. ونميز أيضاً بين «لقاءات» سياسية الطابع وأخرى فكرية الطابع فى إطار الحوار الإسلامى المسيحى.

تأثر المناخ المحيط بالحوار فى أوساط طرفه الإسلامى سلبياً بما بدا من دعم الغرب لإقامة «إسرائيل». فما أسرع أن عانى بعد بروز فكرته من ضعف الحماس له بسبب هذا الدعم. وبرز فى هذه الأوساط شك قوى فى أهداف الطرف المسيحى من اللقاءات السياسية الطابع التى استهدفت بشكل مباشر مواجهة الاتحاد السوفييتى والشيوعية. وأصبح الطريق مسدوداً أمام هذا النوع من الحوار بعد طرح الغرب فكرة «الأحلاف» ومنها «الحلف الإسلامى» فى وقت اشتدت فيه «ثورة التحرير». وجاء تحرك الفاتيكان فى إعداد وثيقة «تبرئة اليهود» فى وقت تزايد فيه العدوان

الإسرائيلى على الدول العربية فى الستينات ليثير الشك فى أوساط الطرف الإسلامى «بالكاثوليكية» أيضاً بعد أن كان مركزاً على «البروتستانتية». وكان من الممكن لولا العدوان الإسرائيلى أن يحظى يهذا الموقف الكاثوليكى من اليهود بتجاوب الطرف الإسلامى لأسباب تتصل بعقيدة الإسلام. واستطاع الحوار الفكرى الطابع أن يشق طريقاً ضيقاً بصعوبة فى ظل جو ملبد بغيوم داكنة. وأصبح هذا الجو غير مناسب بالمرة للحوار بعد «نكسة» حزيران- يونيو عام ١٩٦٧ فى ظل هزيمة عسكرية نكراء نزلت ببعض الدول العربية، واحتلال إسرائيل القدس الشرقية وأراضى عربية من عدة أقطار

تحسن المناخ المحيط بالحوار فى أوساط طرفه الإسلامى بعد حرب رمضان عام ١٩٧٣، بفعل ما حققته الدول العربية من «انتصار محدود» فيها كان له أثر نفسى قوى وفر حداً من الشعور بالندِّية التى تشجع على الحوار. فكان أن انتعشت فكرة «الحوار» عموماً، وبدأت «حوارات»، ونشط الحوار الإسلامى المسيحى. وشهد العالم الإسلامى أحداثاً فى أنحاء مختلفة منه ضاعفت من شعور الطرف الغربى بأهمية الحوار الإسلامى المسيحى والتعرف على ماهية ما عرف «بالصحوة الإسلامية»، وزادت من إحساس الطرف الإسلامى بالندّية ومن ثَم من استعداده للحوار.

- حين ننظر فى مجمل نشاطات الحوار فى هذه فترة، نلاحظ أن المبادرة إليه استمرت من الطرف الغربى المسيحى «بروتستانتيا» كان أو «كاثوليكياً»،

في غالب الأحيان، وأن تجاوب الطرف الإسلامي كان أقوى من تجاوبه في فترة ما قبل عام ١٩٧٣ مع فكرة الحوار، وقد بلغ هذا التجاوب حداً القيام بمبادرة.

- نلاحظ أيضاً أن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بدأت تشارك في بعض لقاءات الحوار في جزئها العربي، لأن الجزء الروسي كان ممنوعاً من النشاط في ظل «الاتحاد السوفييتي». وقد حرص الارثوذكسيون العرب على إبراز انتمائهم الحضاري لدائرة الحضارة العربية الإسلامية التي شاركوا في تأسيسها وازدهارها في كل لقاء ضمهم.

- نجد أن موضوعات «الحوار الإسلامي المسيحي» تنوعت؛ فتناولت «إمكانية ان يكون الدين أيدلوجية الحياة»، و«الأسس المشتركة بين الديانتين في المعتقدات»، و«العدل الاجتماعي ثمرة الإيمان بالله»، و«كيف نتغلب على الأحكام المسبقة وسوء الفهم اللذين يفرقان بين أتباع الديانتين». كما عنيت أيضاً «بالشباب» و«المرأة» و«الأسرة» و«التربية» و«البيئة» و«التعايش» و«التعددية» و«أخلاق العمل» وموضوعات مشابهة.

- كما نجد أن عدد اللقاءات كان في تزايد، وتعددت الجهات المنظمة في الطرفين، وبَرز نوع من التخصص في كل جهة منظمة. وظهرت الحاجة إلى تحقيق تنسيق بين النشاطات.

- ونلاحظ أن هذه اللقاءات أثمرت تفاعلاً إيجابياً بين المشاركين فيها، وأوجدت مناخاً «سمحاً» عززتْ من اقتناع نخبة بضرورة الاستمرار مع الحرص على الانتقال بالحوار إلى طور جديد.

- ونلاحظ أخيراً أن هذه الفترة شهدت أيضاً نشاطات فى إطار «الحوار بين الأديان» فى عالمنا؛ وشهدت اهتمام «المؤسسة الدينية اليهودية» بالمشاركة فى نشاطات تضم أتباع الديانات السماوية الثلاث فى إطار «حوار إسلامى مسيحى يهودى». وقد قوبل هذا التحرك من الطرف الإسلامى فى الحوار الإسلامى المسيحى بتحفظ شديد بسبب تصاعد العدوان الإسرائيلى الصهيونى.

يمكننا من خلال هذا النظر أن نضع أيدينا على العوامل التى تؤثر فى الحوار الإسلامى المسيحى بين عالم الإسلام وعالم الغرب، سلباً أو إيجاباً.

فتوافر حد من الندية بين طرفى الحوار عامل إيجابى بما يورثه من ثقة لديهما. وهو يحثُّ على استكمال تعارفهما وصولاً إلى التعاون فيما بينهما.

ومحاولة دفع الحوار لبحث سياسى مباشر فى موضوعات يستهدف أحد الطرفين من بحثها جر الطرف الآخر إلى موقفه، هو عامل سلبى، يسبب تناقص الثقة ويثير جواً من الشك.

والسياسة الإسرائيلية العدوانية تجاه العرب والمسلمين فى موضوعات القدس والأراضى المحتلة وعودة الفلسطينيين ومعاملة من بقى منهم فى وطنهم منذ عام ١٩٤٨، وما تلقاه هذه السياسة من دعم فى أوساط الطرف الغربى أو سكوت عنها، هو عامل سلبى، يعكر صفو أجواء الحوار.

والتأكيد على البعد الروحى ووضع القيم العلا نصب العين والبحث فى موضوعات تهم الإنسانية جمعاء والسعى لإيجاد أرضٍ مشتركة، هو عامل إيجابى، يسهم فى توفير مناخ صالح لتقدم الحوار.

واختيار موضوعات حيوية يكون البدء بها، وتُوَفى حقها من النظر، ويكون بالإمكان الوصول إلى إنجاز محدد فيها، هو عامل إيجابى، يساعد على الإقبال على الحوار وتحمس الرأى العام له.

الشعور بعظم التحديات التى تواجه الإنسانية وعالمنا على مشارف القرن الحادى والعشرين الميلادى، يكاد يكون تماماً فى عالمنا. ومثله الاقتناع بضرورة «تعاون» بنى البشر جميعاً لمواجهة هذه التحديات، والاستجابة لها بعمل صالح يشاركون فيه جميعاً، وبأن «الحوار» بينهم هو السبيل للوصول إلى هذا التعاون. وتتسع دائرة المؤمنين الذين يرون أن للدين دوراً ايجابياً متميز فى تعميم ثقافة القيم العليا، والعناية من ثم بـ «الحوار بين الأديان» بعامة وبالحوار الإسلامى المسيحى بخاصة لمواجهة أخطارٍ مآثلة ناجمة عن الطغيان.

- هناك خطر طغيان الإنسان على بيئته ومحيطه الحيوى، وقد بلغ بفعل ثورة العلم التقنى حداً لم تعرفه الإنسانية من قبل.

- وهناك خطر طغيان الإنسان على أخيه الإنسان فى صور شتى تغذيه «العنصرية». وقد تفاقم مع انتشار تجارة السلاح.

- وهناك خطر طغيان الإنسان على نفسه بالاستسلام لشهواته. وقد اشتد بفعل تجارة المكيفات وعزلة الإنسان فى المجتمع الصناعى التقنى.

- إن بروز خطر الفناء بفعل الأسلحة غير التقليدية يضع الإنسانية أمام خيار السلام.

- وإن بروز خطر «القارونية» فى أوساط الدول الغنية يضع الإنسانية أمام خيار العدل وعموم الرخاء.

- وإن بروز خطر «السيطرة الإعلامية» والوقوع فى أسر رؤية الذات وإسقاط الآخر من الحسبان يضع الإنسان أمام خيار «التعارف» وصولاً إلى «وحّدة التنوع» فى عالمنا.

ولاشك فى أن الحوار الإسلامى المسيحى قادر على حشد الطاقات لتغليب هذه الخيارات. وهو مدعو لتحديد موضوعاته فى ضوئها. ولكن اللافت أن المناخ المحيط بفكرته اليوم يفسِح المجال أمام الغلاة الرافضين له كى يعبئوا المشاعر ضده، بما نشهده من قيام بعض الغربيين بتنظيم حملة على الإسلام وبالعدوان على المسلمين ودعم الاستعمار الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين.

المنطق «الإسلامى» إلى الحوار الإسلامى المسيحى

توفر العقيدة الإسلامية أساساً قوياً للحوار مع الأديان بعامة، وبين بنى الإنسان فى مختلف الموضوعات، يكون الانطلاق منه إلى مباشرة الحوار. فالإسلام يعتبر أن «مبدأ الاختلاف بين الناس هو أحد سنن الله فى الكون، وهو واقع بمشيئة الله سبحانه». ويرتبط بهذا المبدأ «مبدأ الحق فى الاختيار» فلا إكراه فى الدين. والإسلام يقرر أن الله خلق الناس من ذكر وانثى

وجعلهم شعوباً وقبائل «ليتعارفوا» ودعاهم إلى التعاون على البر والتقوى. وقد باشر نبى الإسلام محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم حواراً مع اتباع الديانتين النصرانية واليهودية. وجاءت «الصحيفة» متضمنة أساس التعايش والتعاون، ومشجعة على استمرار الحوار. ومنذ ذلك الحين والحوار متصل بين أتباع الديانات فى دائرة الحضارة العربية الإسلامية ينشط أحياناً ويفتر أحياناً.

تجدر الإشارة هنا إلى أن أجدادنا استخدموا مصطلح «النصارى» فى حديثهم عن «المسيحيين»، وذلك لأنه وارد فى القرآن الكريم. وقد ورد فى لسان العرب أن النصارى جمع نصرى ونصران من نصر بمعنى أعان وأعطى، وأن الناصرة قرية بالشام والنصارى منسوبون إليها. والاسم يتضمن معنى العطاء والعون، وهو الشائع فى بلاد الشام والجزيرة العربية. ومن المستحسن استخدامه حين يكون الحوار فى دائرتنا الحضارية بين منتمين لها.

هذا الأساس العقيدى للحوار هو خير موجه للتفكير فيما ينبغى أن يكون عليه هذا الحوار فى بعده الفكرى الذى يحدده العقل الإنسانى على هدى من الوحى.

أهداف الحوار من منظور إسلامى

الأهداف العامة للحوار الإسلامى المسيحى المنطلق من الايمان بالله سبحانه، هى الوصول إلى «كلمة سواء» فى مواجهة «الطغيان»، وعمل

الصالحات، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ٦٤).

* أحد الأهداف التى لها أولوية هدف «التعارف» الذى يتحقق من خلاله معرفة الآخر على حقيقته وتصحيح الصورة الذهنية عنه الحافلة بركام من الأحكام المسبقة وسوء الفهم اللذين يفرقان بين أتباع الديانتين. ويمكن أن نجمع فى مقاربة هذا الهدف بين أسلوب غير مباشر من خلال اللقاء على بحث موضوعات تهم الطرفين، وأسلوب مباشر بالحديث عن الأحكام المسبقة وسوء الفهم.

* هدف آخر هو «التعاون على البر والتقوى» من خلال النظر فى أمور حيوية لطرفى الحوار، بروحية استباق الخيرات بين مؤمنين لكل منهما وجهته. «الحق من ربك فلا تكونن من الممترين. ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأتى بكم الله جميعاً. إن الله على كل شىء قدير». (البقرة ١٤٨).

* يجب أن ينأى هذا الحوار، والحوار بين الأديان، بعامة عن استهداف التوحيد بين دينين أو أكثر. وهذا يعنى ألا يتشغل الحوار بمسائل الاعتقاد، بل ينطلق من احترام كل طرف لقعيدة الآخر والتسليم بمبدأ الاختلاف ومبدأ حرية الاختيار «لكم دينكم ولى دين». وأمر المحاسبة على الاعتقاد والأعمال على السواء هو لله سبحانه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج ١٧).

* هدف رئيسى لهذا الحوار أن يجهر «بالحق» فى المسائل والأمور التى تهم الناس. وأن يُذكِّر بالمبادىء والقيم العلا التى يجب الالتزام بها منهم، ومن السلطان، ولكل من بيدهم مقاليد الأمور. وهذا يتطلب من طرفى الحوار استحضار حقيقة أن الدين يوجه السياسة وليس العكس، والدعوة من ثم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومطالبة «القارونيين» فى عالمنا بما طالب به المؤمنون قاروناً، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. (القصص ٧٧)؛ كما يتطلب منهم التذكير بأن ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص ٨٣).

موضوعات الحوار

الموضوعات ذات الاهتمام المشترك بين طرفى الحوار الإسلامى والمسيحى كثيرة. ومن المستحسن تصنيفها:

فمنها ما يتعلق بالموقف العقيدى المبدئى من قضايا بعينها، فى مقدمتها قضية مقاومة العنصرية والتميز العنصرى، وقضية العدل الاجتماعى، وقضية الحرية والمسؤولية، وقضية السلام القائم على العدل.

ومنها ما يتعلق بالإنسان وأمه الأرض ومحيطنا الحيوى وبيئته.

ومنها ما يتعلق بالإنسان فى مجتمعه وقضية الأسرة والزواج والعفة، وموقع المرأة فى الأسرة والمجتمع والتكامل بينها وبين الرجل على أساس من المساواة الكاملة في انسانيتها، وقضية التكافل الاجتماعى بمختلف صوره، وقضية التعددية فى المجتمع.

ومنها ما يتعلق بالإنسان والسلطان، والشورى والديموقراطية، والمشاركة السياسية.

ومنها ما يتعلق بأخلاق العمل، وبخاصة فى المجالات الجديدة التى فتحتها ثورة التقنية.

ومنها ما يتعلق بقراءة التاريخ المشترك بنظرة «التاريخ الحافز» وليس بنظرة «التاريخ العبء» وإبراز الصور الإيجابية للتعايش والتعاون. وكذلك ما يتعلق بتشوف المستقبل المشترك.

صيغ الحوار والمعنيون به

الحاجة ماسة إلى استحضار الخريطة التفصيلية لكل من طرفى الحوار، بما فيها من مذاهب وطوائف وشيع ومؤسسات؛ واستذكار الصيغ التى اعتمدت فى المرحلة السابقة، للوصول إلى اطمئنان لصيغ مناسبة، وتحقيق التنسيق اللازم فى أوساط كل طرف لإجراء الحوار الإسلامى المسيحى وإنجاحه. ولابد أن تستكمل هذه الخريطة بخريطة لحوار الأديان فى عالمنا. وسيكون من السهل فى ضوء ذلك تحديد المعنيين بالحوار.

وبعد.. بين يدى المرحلة الجديدة

فواضح أن مباشرة المرحلة الجديدة من هذا الحوار تقتضى التمهيد له بتبديد غيوم داكنة تجمعت في سمائه خلال السنوات الثلاث الماضية. فالطرف الإسلامي قلق من موقف الطرف المسيحى الغربى من القدس. ومرارته شديدة وهو يرى موقف الطرف المسيحى الغربى الرامى إلى تكريس قلعة الاستعمار الاستيطانى الصهيونى في فلسطين في قلب دائرة الحضارة العربية الإسلامية بينما يشهد العالم بفرح عارم سقوط آخر قلاع العنصرية وأكبرها في قارة أفريقيا. وما أشد هذه المفارقة التاريخية وما أحدها. والطرف الإسلامى قلق من الحملة التى يقوم بها مسيحيون غربيون مغالون وصهيونيون غربيون عنصريون على الإسلام، ومقدر في الوقت نفسه مواقف رموز مسيحية أوروبية واجهت هذه الحملة شأن خطاب الأمير شارلز ولى عهد بريطانيا بشأن الإسلام فى أكتوبر١٩٩٣ وقد جاء اعتراف الفاتيكان بإسرائيل فى نهاية عام ١٩٩٣ فى سياق أورث كثيرين فى الطرف الإسلامى مشاعر حافلة بالمرارة مفعمة بالشك؛ وجاءت جرائم العنصريين من الصرب فى البوسنة والهرسك ومواقف الغرب الساكتة عنها لتثير الغضب الشديد.

الحاجة ماسة فى ضوء هذا الواقع إلى مبادرات يقوم بها الطرف المسيحى الغربى لتبديد هذه الغيوم تتضمن مواقف واضحة مبدية تجهر بالحق، لَيتهيأ الجو لحوار مثمر والله من وراء القصد.

افاق التعاون الإسلامى المسيحى وطنياً واقليمياً فى القرن الحادى والعشرين(١)

لقاء آخر إسلامى- مسيحى يعقد فى رحاب المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية والمركز الأرثوذكسى، ليبحث فى «آفاق التعاون والمشاركة بين المسلمين والمسيحيين على أبواب القرن الحادى والعشرين». وهذا يعنى وضع لبنة أخرى فى بناء صرح التعاون بين المؤمنين بالله سبحانه مسلمين ومسيحيين لكل ما فيه خير الإنسان وإعلاء كلمة الله فى الأرض. وذلك بما يحققه اللقاء من تفاعل بين أهل فكر وممارسة، وبما تشعه منارته فى أوساط دائرة واسعة تنويراً فكرياً يسهم فى رسم معالم الصراط المستقيم.

يستطيع من شارك فى مثل هذا اللقاء أن يشهد على ما حققته اللقاءات هذه من نتائج ايجابية وما أثمرته من ثمار طيبة، من خلال ما حدث من حوار فيها وما قام من علاقات شخصية بين المشاركين. وقد عبر الزميلان «هشام نشابه وأوغستير دوبره لاتور» بلسان حال كثيرين حين سجلا فى مقدمتهما «لكتاب البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة من ١٩٥٤/ ١٣٧٣ إلى ١٩٩٢/ ١٤١٢» أن «الاقتناع زاد بأن أهمية اللقاءات تكمن فى عقد اللقاء فى حدٍّ ذاته. فالمحادثات الجانبية بدت أهم من

(١) القيت هذا البحث فى اللقاء الإسلامى المسيحى الذى انعقد فى استانبول فى ٦/ ١٩٩٧ بدعوة من المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامى.

محاضرات الجلسة العامة. إذ أنه في العلاقات الشخصية يعاد النظر في الأحكام المسبقة وتتكون معرفة أصبحٌ للآخر، وتحاك صلات صداقة أُفقها الاحترام المتبادل والقبول بالتنوعية». وذلك لأن الحوار بين الأشخاص «يسهم بطريقة فضلى فى الانفتاح المتبادل، وفى إشاعة جوٍّ من الصدق والأخوة» وقد فرض نفسه «عنصراً أولاً والعنصر الأهم فى كل لقاء».

ثمأر طيبة أخرى أثمرتها هذه اللقاءات على صعيد التنوير الفكرى وإشاعة مناخ «السماحة» والحث على تعزيز التعارف والتعاون، من خلال ما قام به المشاركون فيها من تعميم لما بلورته من أفكار، ومن نَشْرٍ لما اغتنوا به من علم وخبرات. ويمكن لكاتب هذا الحديث أن يكتب الكثير فى شهادته على ما اغتنى به من خلال مشاركته فى عدد منها. وقد سجّل بعضاً منها فى حديثه عن الفكر الدينى فى آخر كتبه «تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر»، وقبل ذلك فى كتابيه «عمران لاطغيان» «ووحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية فى عالم مترابط».

هذه الخواطر التى تداعت من وحى هذا اللقاء بين يدى النظر فى موضوعه تؤكد على دوره فى استشراف آفاق التعاون والمشاركة بين المسلمين والمسيحيين، وضرورة استمرار اللقاءات التى تجمع أهل الفكر والممارسة للقيام بهذا الدور.

موضوع هذا اللقاء، كما يتضح من عنوانه، متصل بعلم دراسة المستقبل، استشرافاً وتشوفاً ورؤيةً لآفاق التعاون والمشاركة. وهذا يقتضى

أن نضع فـى اعتبارنا منـهج هذا العلم الـذى يشير عليـنا بالنظر فـى الواقع القائم واستحضار جذوره التاريخية لـلوقوف على أصوله وسنن التغير فيه والعـلاقة بين العـوامل التـى تتفـاعل فى تكـوينه، ومـن ثم مبـاشرة عملـية الاستشراف بتصور مـا سينجم عن هذا التفاعل بين هـذه العوامل وعاملى الحلم وإرادة الفـعل المعبرين عن أحـلام الإنسان وإرادته فى تحقيـقها. وقد تضمن العنوان ذكر القرن الحادى والعشرين الميلادى الذى نحن اليوم على أبوابه، وهذه مـناسبة لوقفة تفـكر نستلهم فـيها تعاليم الوحـى الالهى الذى نزل عـلى عيـسى بن مـريـم ومحمد بـن عبدالله والانـبياء والمرسلين كـافة «لانفرق بين أحد من رسله»، عليهم صلاة الله وسلامه.

إسهامـنا فى معـالجة موضوع الـلقاء هو تنـاوله على المستويين الـوطنى والإقليمى وأول مـا يتبادر إلى الذهن بشـأن المستوى الوطنى أنه يـتحدد فى إطار دائرة «الدولة» التى يـعيش فيها مسيحيون ومسلمـون. كما يتبادر إلى الذهن بـشأن المستوى الإقـليمى أنه يتـحدد فى إطار دائرة «الحضـارة» التى ازدهرت فى هذا الاقليم وشـارك فى تشييدها مسلمون ومسـيحيون واتباع ملل أخرى.

آفاق التعاون والمشاركة على هذين المسـتويين تتضح من خلال النظر فى المنطلق الذى ينطلق منه المسلمـون والمسيحيون إلى التعاون والمشاركة، وفى الخبرة التى تكونت لديهما من خـلال السير فى هذا الطريق منذ بدأ الحوار الإسلامى- المسيحى المعاصر، وفى المناخ المحيط بهما اليوم، وفى أهدافهما

المشتركة وحقول عملهما المشترك، ومن ثم النظر فيما يمكن عمله. وسنحاول فيما يلي تناول هذه النقاط بايجاز مع التركيز على الأخيرة.

شهد التاريخ الإنسانى تعايشاً إسلامياً مسيحياً حافلاً بالتعاون والمشاركة فى ظل الحضارة العربية الإسلامية التى اشترك المسلمون والمسيحيون فى تشييد صرحها. ولا يزال هذا التعايش مستمراً منذ أربعة عشر قرناً. وحين ننظر فى منطلقه نجد أنه انطلق «من أسس مشتركة بين الديانتين المسيحية والإسلامية، ومن مواطن التقاء فى ميادين الحياة»، كما يقول الأب جورج قنواتى فى كتابه «المسيحية والحضارة العربية». وقد أوضح الأب قنواتى أنه «لكى نفهم كيف استطاع المسيحيون أن يعيشوا فى إطار الحضارة الإسلامية العربية، ويشعروا أنهم من لحمتها وسداها، وأنهم ليسوا غرباء عنها بل من العناصر الفعالة فى تشييدها ومساعدة اخوانهم المسلمين لصيانة عقائدهم فى مختلف ميادين العلوم ومقتضيات الحضارة يجب أن نشير إلى هذه الأسس المشتركة ومواطن الالتقاء». وعمد من ثم إلى ذكرها فى عشرة هى «إله واحد، الله واحد حى قيوم، الله خالق السماوات والأرض، الله محب للبشر، الله ذو الغفران والرحمة، الله هو الحميد المجيد، أنبياء يرسلهم الله، الله يحيى الأموات ويرضى الأنفس، الإنسان والعبادة، الإنسان واعترافه بحقوق الله». وهذه الأسس كما هو واضح ترسى أرضية صلبة للتعاون والمشاركة. وهى تتطلب تأكيداً عليها وإجلاء حدود الاختلاف القائم بين المعتقدين المسيحى والإسلامى فى بعض منها. وقد بين الأب قنواتى فيما

يخص الأساس السابع «أنبياء يرسلهم الله» أن هناك اختلافاً جوهرياً بين المعتقدين يتمثل فيما تعتقده المسيحية من أن النُّبوة الكاملة النهائية تحققت فى يسوع المسيح، بينما يعتقد المسلمون أن محمداً هو خاتم الأنبياء، ولكن لم يمنع هذا الفارق من أن يحترم كل فريق عقيدة الفريق الآخر، وأن يتاح لأهل الكتاب الحياة المدنية المشتركة فى «ذمة الإسلام ورعاية حقوقهم الأساسية وممارسة طقوسهم الدينية» ولا شك فى أن المعالجة الصحيحة لهذا الاختلاف يسهم فى جعل آفاق التعاون والمشاركة رحبة. وسنعرض لها فى إطارِ ما ينبغى عمله.

حين نستحضر الخبرةَ التاريخية فيما يتعلق بالعلاقات بين المسيحيين والمسلمين بعامة، طوال القرون الأربعة عشر الماضية، نجد أن هذه العلاقات تراوحت بين الصدام والتعاون، وعرفت التعصب والسماحة. وقد تفاقم الصدام حين عمدت قوى طغيان وبغى إلى العدوان باسم الدين. وهذا ما حدث إبان حروب الفرنجة التى استهدفت دائرة الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى الأوروبية، وإبان الغزو الاستعمارى الأوروبى لهذه الدائرة فى العصر الحديث الأوروبى. فإذا ما ركزناً النظر على هذه العلاقات فى نطاق دائرة الحضارة العربية الإسلامية نجد أن التعاون كان هو الغالب بفعل ما سبق ذكره فى الحديث آنف الذكر، وإن لم تنجح هذه العلاقات فى بعض الفترات من التأزم الذى فتح الطريق أمام التعصب. ونلاحظ أن هذا التعصب كان يتفاقم فى ظل انتشار الجهل فى

أوساط الحكم والعامة على السواء، وعند غلبة التقليد، وحين يتسلط الاستبداد الذى كان يكتوى بناره المسلمون والمسيحيون على السواء. وتحفل صفحات تاريخ الحضارة العربية الإسلامية بالأمثلة الرائعة على التعاون بين المسلمين والمسيحيين على مختلف الصعد. وهى تستحق أن تبرز. وقد أحسن الأب قنواتى عرض بعض هذه الأمثلة من خلال حديثه عن إسهام المسيحيين فى حضارتهم العربية الإسلامية.

لقد برزت فكرة الحوار الإسلامى المسيحى فى عالمنا المعاصر، بفعل عوامل عدة، رافعة شعار تحسين العلاقات بين المسلمين والمسيحيين. ومرّ هذا الحوار منذ بَدْئه فى مراحل. وقد عرضنا هذه المراحل فى بحث «نظرات فى الحوار الإسلامى المسيحى». وخرجنا من النظر فى مجمل نشاط الحوار فى هذه المراحل بالإشارة إلى العوامل التى تؤثر فى العلاقات بين مسيحيى الغرب ومسلمى ومسيحيى حضارة الإسلام، سلباً وإيجاباً. فتوافر الندية فى هذه العلاقات عامل ايجابى، ووضع القيم العلا نصب العين فيها والالتزام بهذه القيم والجهر بالحق عامل إيجابى آخر، والتعاون على تحسين نوعية الحياة للناس ورشاعة العدل الاجتماعى عامل ايجابى ثالث، واختيار موضوعات حيوية لهذا التعاون عامل إيجابى رابع. كما أن سياسة قوى الهيمنة الغربية ودولها تجاه العرب والمسلمين بما تتصف به من عدوانية، وباعتمادها الصهيونية العنصرية لتنفيذ هذه السياسة هو عامل سلبى. ومحاولة هذه القوى استغلال هذه العلاقات لأغراضها وجرّ

الـطرف الأخـر إلـى مواقـفهـا عـامل سـلبى آخـر. وسعـى هـذه القـوى والصهيونـية بخاصة لاشاعة سوء الفـهم بين الأخوة المسيحيـين والمسلمين على المستويين الوطنى والإقليمى وإشعال نار الفتنة الطائفية هو عامل سلبى ثالث حين ينجح. وهو فى الوقت نفسه عامل إيجابى يُقّوى لحمة العلاقات حين يفشل بفعل التنبه له.

حين نـستذكـر سجّل الـعلاقات بين المـسلمـين والمسيـحيين فـى دائرة حضارتـهم العربيـة الإسلامية خلال الـعقود الخمسـة الماضية، نجد تـعاوناً فعالاً لتحقيق أهداف المشروع الوطنى فى الدولة القطرية، ولتحقيق أهداف المشروع الحضـارى العربى فى عموم الدائـرة العربية. كما نجـد أن أعاصير قوية هبّت على هذه العلاقات بفعل إشعال نار الفتنة فى لبنان، ومحاولات إشعالهـا فى مصر، والمناخ الـذى أشاعه إشعال نار الـفتنة فى جمـهوريات يوغـوسلافـيا السـابقـة بين صرب مـسيـحيين وبـوسنّـيين مسـلمـين. وقد إستطاعت هـذه العلاقات أن تصمد أمام هـذه الأعاصير القوية. ففـى لبنان تـم اخماد نار الفـتنة، وعاد الأخوة إلى العيـش الآمن معاً والتعاون لتـحقيق مشـروعهم الوطـنى. وتحقق مـا سجله الـلقاء الإسلامـى- المسيحـى الذى انعقد بطرابلس الغرب فى ليبيا بين ١ , ٦ صفر ١٣٩٦ , ١١ , ٦/ ٢/ ١٩٧٦ فى قـراءته لـهذه الفـتنـة ونصه «إن لـبنـان العزيـز علـى قلوب المـسلـمين والمسـيحيين قـد تعرض لفـتنة ذهـب ضحيتـها آلاف الأبرياء. وقـد حاول بعض أصـحاب الأغراض من داخل لبـنان وخارجه أن يصـوروا الصراع

على أنـه طائفى بـين المسلمين والمـسيحيـين. إن هذا الافتراء لا يـسيء إلى المسلمـين والمسيحيين فـى لبنان فحسـب، بل يهدف إلى نسف محاولات التقارب الجادة بين الـعالم الإسـلامى والعالـم المسيـحى. وعلى هـذا فإن الجانبين يستنكران الـفتنة التي قامت في لبنان، ويستنكران صـبغها بالصبغة الطائفية. ويـشجبان كل محاولة للتـقسيم أو لتشويه روعة التـعايش السمح الذى تعـيشه العائلات الـروحية فى لبنـان». وفي مصر فشلـت محاولات إشعال الفتنة التـى بدأت منذ السبعينات. وكان فشلها بـسبب تضافر جهود القـيادات الـروحية المـسيـحية والمسلـمة وأهـل الرأى والحكـومة. ولـكن استـمرار من يقـفون وراء هذه المحـاولات فى سعـيهم للإيـقاع بين أبـناء الوطن الـواحد بإثارة الـتعصب الديـنى يمثل تحـدياً يتطلـب استجابـة قوية تستأصل المحاولات مـن جذورها وتضاعف قوة التحصين مـن الفتنة. وقد استطـاعت الخاصة من المسـلمين والمسيحـيين أن تبدد الغـيوم التى سببـتها عمليات «التطهـير العرقى» فى البوسنة والهرسك، ومستعـينة بوعى العامة أن هذه العمليات هى جرائم ينهى عنها الدين، وإن تستر مقترفوها وراءه.

المناخ المحيـط بالمسيحيين والمـسلمين على المـستويين الوطنى والإقـليمى اليوم، مناسب إلى حدٍّ ليس بالقليل لتعزيز التعاون والمشاركة فى أوساطهم. ففى عـالمنا اليـوم من حولهـم حركات إحيـاء دينى تتـنامى. وقد تـتبعنـا مع آخرين «المراجعة» التى تجرى فى عالمنا وبروز التدين من جديد، واستشهدنا بالشعار الذى رفعه رئيـس الهيئة الأوروبية السابق جاك ديلور، وأكّده خلفه

جاك سانتير «ينبغي أن نعطى روحاً لأوربا»؛ وفصلنا الحديث عن هذه الظاهرة فى كتابنا «تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر والأمثلة كثيرة على هذه الحركات جاء ذكر عدد منها فى الحديث الذى أجرته مجلة رسالة اليونسكو (عدد أيلول ١٩٩٦) مع جون اسبوزيتو بعنوان «الدين يبعث من جديد». ولكن هذا المناخ يتصف فى الوقت نفسه بالمتقلب، فيتعكر أحياناً بفعل «أعلام الأزمات» الذى يثير المخاوف ويغذى التعصب فلا يقدم المعلومة بأمانة، وبفعل «مناهج تعليمية» واقعة فى أسر «التاريخ العبء» متجاهلة «التاريخ الحافز»، وبفعل سياسات قصيرة النظر تنجم عنها تداعيات سلبية. وهكذا نجد فى هذا المناخ ما يحفز على التعاون والمشاركة، رفى الوقت نفسه ما يعيق حركتهما. واذا ما ركزنا النظر على دائرة الحضارة العربية الإسلامية وحوض البحر الأبيض المتوسط الواصل بينها وبين الحضارة الغربية، بكل الدوائر القطرية فيها، نجد أن قضية فلسطين ومسألة القدس بخاصة ومجريات الأحداث المتصلة بالاحتلال الصهيونى لفلسطين والمقدسات الإسلامية والمسيحية، بما تمثله من تحد للمسلمين والمسيحيين، تصنع مناخاً صالحاً لا ستمرار تعاونهما معاً لمواجهة هذا التحدى والاستجابة له.

الأهداف التى يضعها المسلمون والمسيحيون نصب أعينهم فى تعاونهم والمشاركة بينهم فى المرحلة الراهنة، هى نفس الأهداف التى بلورتها خبرتهم الطويلة فى العمل معاً. وهم مشدودون اليها بفعل إيمانهم بالله

الواحد الذى دعاهم إلى عمل الصالحات وتعزيز التعارف فيما بينهم والتعاون على البر والتقوى ومقاومة الطغيان والبغى بغير حق، والانطلاق فى ذلك كله من احترام كل من المسيحى والمسلم عقيدة الآخر والتسليم بمبدأ الاختلاف ومبدأ حرية الاختيار، وأن المحاسبة على الاعتقاد والأعمال هى لله سبحانه وتعالى، وأنهم مدعوون إلى الوصول إلى «كلمة سواء».

إن هذا التوجيه الإلهى للمؤمنين مسيحيين ومسلمين يدعوهم إلى إمعان النظر فى أحوال العالم الذى يعيشون فيه ليقرأوا واقعه الحضارى. وقد استجابت لهذه الدعوة الحوارات الإسلامية المسيحية المتتالية ومؤتمرات جمعت مؤمنين من مختلف الأديان ومنها «مؤتمر إسهام الأديان فى ثقافة سلام» الذى نظمته اليونسكو ببرشلونة فى كانون أول- ديسمبر ١٩٩٤ , وجاء فى التصريح الذى صدر عنه بشأن هذه القراءة لواقع عالمنا الحضارى أننا نعيش فى عالم ليس ثمة امكانية فيه للعزلة، فى زمن غير مسبوق فى سهولة تحرك الشعوب بين أرجاء العالم وفى امتزاج ثقافات هذه الشعوب، ونحن جميعاً سواء فى اعتمادنا المتبادل على بعضنا بعضاً، ونتقاسم مسؤولية لافكاك منها فى الحفاظ على عالمنا كله سليماً. ونحن نواجه أزمة يمكن أن تصل بالنوع البشرى إلى الفناء أو تأتى بنا إلى صحوة جديدة وأمل جديد. وأشار هذا «التصريح» إلى الأخطار الناجمة عن الطغيان بأشكاله المختلفة التى تهدد السلام، من فوارق اقتصادية فاضحة بين الجماعات الإنسانية، وتبديد للمواد الخام، وفقر مدقع، وعنصرية،

وإرهاب فى صور كثيرة، ولامبالاة، وفساد وجريمة. كما أشار إلى «الاستعمار، والاستغلال، والتسلط، وجميع أشكال الفرقة» فى معرض إهابته بالمؤمنين على مواجهة هذه الأخطار ودفعها.

هكذا نجد المسيحيين والمسلمين على المستويين الوطنى والقومى يشاركون إخوانهم والمؤمنين بعامة فى أهداف لها صفة العالمية. ومن هذه الاهداف «احترام حقوق الإنسان، بما فى ذلك حق كل قوم وملة فى حرية العبادة، وبتعليم دينى يحث على التعارف والسماحة تأكيداً لمبدأ لا إكراه فى الدين، واحترام البيئة والتزام العدالة الاجتماعية على مختلف المستويات محلياً وقطرياً وإقليمياً وعالمياً، والنهوض بمسؤولية تشجيع توجهات بشرية بالحكمة والرحمة والمشاركة والإحسان والتضامن والمحبة تلهم الواحد والمجموع اختيار درب الحرية المسؤولة».

إن العمل لهذه الأهداف يقتضى التزام المسيحيين والمسلمين «الحق» فى المسائل والأمور التى تهم الناس، والجهر به، والتذكير بالمبادىء والقيم العلا التى يجب الالتزام بها منها ومن «السلطان» ومن بأيديهم مقاليد الأمور، منطلقين من أن الدين يوجه السياسة. والدعوة من ثم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومخاطبة قوى الهيمنة بما خاطب به المؤمنون قاروناً «واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين»، والتذكير بأن «تلك الدار الآخرة يجعلها الله سبحانه «للذين لا يريدون

علواً فـى الأرض ولا فساداً والعاقـبة للمتـقين». وواضـح أن قيام المؤمنين بهـذا الأمر يقتـضى كمـا أوضح «تصريـح حول إسهـام الأديان فى ثقـافة سلام» «أن يبـقوا متنبهـين إلى عدم ربط أنفسهم بعجـلة القوى السيـاسية والاقتـصادية والاجتـماعيـة المسيطـرة، كى يبـقوا أحراراً لـلعمل من أجل العدل والـسلام.. وأن يضعـوا نصب أعينـهم احترام البـحث عن الحقـيقة والحكمة أينما كانتا».

حين نركـز النظر عـلى الإقليـم نجد أن أهداف التـعاون والمشاركـة بين المسـيحـيين والمـسلمـين، تتـجلـى فى مـشروع نهـضوى حـضارى يـلوره المسيحيـون والمسلمون معاً فى دائرتهـم الحضارية التى قاموا معاً فـى تشييد حضارتـها مع أتبـاع ملل أخرى، وهـى فى إقليـمنا دائرة الحـضارة العربـية الإسلامية. ونجد أن هـذا المشروع يتضمن أهدافاً ستـة هى تحرير الأراضى المحتلـة فى الإقليـم، وإيجاد الحقـائق الوحدويـة بين أنحاء الإقـليم انسـياباً لحركة النـاس فيه ووصلاً بين أطرافه، وسـيادة الشورى والديموقراطـية فيه احتراماً لحقوق الإنـسان وللتعددية، وإقامة العدل الاجتـماعى فى أوساطه، وتحقيـق التنميـة البشرية فـى مجتمعـاته ودوله، والوفاء بمـتطلبات الـتجدد الحضارى فى حضارتنا وتفاعلنا مع الحضارات الأخرى فى عالمنا.

على مسـتوى الوطن فى حدود دائـرة الدولة ضمن دائرة الإقـليم، نجد الأهداف نفسـها يجرى الـتعبير عنـها فى مشروع وطـنى يتبلـور من خلال حوار تشارك فيه القوى المختلفة. ويحدد هذا المشروع الوطنى إسهام شعب الدولة القطرية فى مشروع الأمة الحضارى النهضوى.

يبدو هدف تحرير الأراضى المحتلة فى الإقليم، وهى هُنا فلسطين والجولان وجنوب لبنان، هدفاً مُلحاً على مشارف القرن الحادى والعشرين، وذلك بعد مضى أكثر من خمس سنوات على مباشرة عملية التسوية التى حملت اسم «عملية سلام الشرق الأوسط»، وتأكد إخفاقها فى بلوغ الهدف الذى أعلنته، والشعور السائد على الصعيد الدولى بهشاشتها، وبروز ملامح «الحل العنصرى» الذى تفرضه على المسيحيين والمسلمين فى فلسطين والمنطقة العربية. وينال هذا الهدف عناية كبيرة من المؤمنين المتدينين مسيحيين ومسلمين بحكم ما يتضمنه إيمانهم من حث على رفع الظلم وإقامة العدل وتحقيق المساواة واحترام حقوق الإنسان. وقد رأينا كيف ظهر لاهوت التحرر فى أمريكا اللاتينية فى الخمسينات، وكيف كان الدين عاملاً أساسياً فى حركات التحرر بعامة وفى الدائرة الحضارية العربية الإسلامية بخاصة، وما تجلى من تعاون المسيحيين والمسلمين فى مقاومة الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية، وكثيرة هى الأمثلة على العناية بهذا الهدف، ومن بينها ما يصدر من معالجات فكرية له فى كتب ومقالات لمسيحيين ومسلمين، وما يحدث عملياً فى الميدان على أرض الواقع ، ويتزايد إلحاح هذا الهدف مع خطر استكمال «تهويد القدس» وتكشف المخططات الصهيونية الاستعمارية بشأنها، وقد أكدت ذلك الأحداث الجارية منذ بدء عملية التسوية من عزل للقدس عن محيطها ومصادرة أراض عربية فيها، والعمل على تهجير المسيحيين والمسلمين من سكانها والاعتداء على أماكن العبادة المسيحية والإسلامية فيها إسرائيلياً

وتكثيف الاستيطان الصهيونى فيها إسرائيلياً، والمقاومة المتصلة لذلك كله عربياً، وتقترب مناسبة حلول سنة ألفين على ميلاد المسيح فتوحى بمضاعفة الجهد لإنقاذ القدس وتحرير فلسطين وتحقيق الحل الديموقراطى لقضية فلسطين الذى يكفل حماية العرب من عدوانية الصهيونية العنصرية التوسعية.

إن مراجعة للبيانات المسيحية الإسلامية المشتركة التى صدرت منذ عام ١٩٥٤م / ١٣٧٣هـ، تبين أن هدف التحرير كان شاغلاً من شواغل المشاركين فى الحوار يتجلى أحياناً بشكل مباشر ويكون أحياناً بين السطور، وإن لنا أن نتوقع أن يتكثف التعاون بين المسلمين والمسيحيين لتحقيقه فى هذه المرحلة، وأن توصل مشاركتهم فى تحديد ما ينبغى عمله وكيف يعمل، ووضع برامج عملية للتواصل الإسلامى المسيحى الذى انعقد فى بحمدون بلبنان عام ١٩٥٦ أشار فى مقدمته إلى «مناخ الحذر والمعارضة الذى أخذ فى النمو حيال النوايا الحقيقية لهذه المبادرة الغربية» وسجّل فى البيان «إعلان استنكار اللجنة للظلم والعدوان وسفك الدماء واغتصاب الأوطان ، وكبت الحريات والتمييزالجنسى والعنصرى والديني، كما نعلن براءة الديانتين من جميع أنواع العدوان.. المخالف مخالفة صارخة لمبادئ القرآن والإنجيل» مع الإشارة إلى «الظروف المناسبة والحوادث الدامية التى تجرى فى كثير من بلدان العالم الآن ولا سيما فى منطقة الشرق الأوسط» . كما يذكر ما دار فى اللقاءات من حديث عن

افتقار «أرض السلام» للسلام «بحمدون ١٩٥٤» وعن المعتدى المغتصب الذى تحركه عقيدة عنصرية تتستر باسم الدين اليهودى كما حدث فى لقاء طرابلس الغرب عام ١٩٧٦ ، وعن معاناة اللاجئين والنازحين، كما فى لقاء لافاليت مالطا عام ١٩٩١

إن ما يصدق على هدف التحرير يصدق على أهداف المشروع النهضوى الحضارى الخمسة الأخرى، وقد تناولتها البيانات الصادرة عن اللقاءات المسيحية الإسلامية بالحديث مؤكدة عليها بلغة روحية. ولا يتسع المجال لتفصيل الحديث عنها واحداً واحداً، ولذا نكتفى بالإشارة إلى تأكيدها على هدف العدل الاجتماعى وهدف الشورى والديموقراطية وحقوق الإنسان والدعوة إلى التجديد والتفاعل مع الآخر فى إطار هدف التجدد الحضاري، وذلك فى ضوء ما نشهده فى إقليمنا من فوارق اجتماعية حادة وانتشار الفقر فى أوساط قطاعات واسعة، ومن افتقار إلى جوهر الشورى والتعددية فى كثير من دول المنطقة وتجرؤ على المساس بحقوق الإنسان، ومن بروز دعوات انكماشية تخشى الانفتاح والإبداع على السواء.

يتضح فى ضوء الأهداف التى يلتقى عليها الأخوة المسيحيون والمسلمون على المستويين الوطنى والإقليمى ما ينبغى عمله لتعزيز التعاون والمشاركة فى العمل لبلوغ هذه الأهداف ، ويمكننا أن نوجزه فى مجموعة أفكار بلورتها اللقاءات الإسلامية والمسيحية .

مطلوب أن تستمر الجهود التى يبذلها العلماء المسلمون والمسيحيون للتأكيد على الأسس المشتركة للديانتين، ومعالجة الاختلاف الجوهرى بين المعتقدين فيما يخص التبوة ونظرة كل طرف للآخر، ويكون الانطلاق فى هذه المعالجة من إقرار مبدأالاختلاف واحترامه «وأن لا إكراه فى الدين» وقد حرص العلماء المسلمون على شرح منزلة النصارى من أهل الكتاب «الأقرب مودة» وتوضيح المعنى الأصلى الكريم«لأهل الذمة» والمقام الرفيع لعيسى بن مريم عليه السلام ولأمه ابنة عمران التى كرمها الله سبحانه، كما حرصواعلى تأكيد الدعوة الإلهية «تعالوا إلى كلمة سواء» «واستباق الخيرات» ومطلوب أن يتابعوا جهودهم هذه ليحولوا دون التعصب والتفسيرات الخاطئة التى توجد أحياناً فى أوساط العامة ، ولا شك فى أن بيان المجمع الفاتيكانى الثانى الصادر فى تشرين ثان عام ١٩٦٤ الذى نص على أن تدبير الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون ..» وبيان تشرين أول ١٩٦٥ الذى نص على أن الكنيسة تنظر بعين الاعتبار إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد.. ودعا إلى التفاهم المتبادل ، مثل خطوة كبيرة على صعيد تلاقى المسيحيين والمسلمين وتعاونهم ومطلوب متابعة هذا الجهد لتوثيق الروابط والحيلولة دون التعصب والتفسيرات الخاطئة.

إن من أهم حقول التعاون والمشاركة التربية والتعليم، بحيث تتلقى الأجيال الصاعدة تعليماً ينقل الصورة الصحيحة عن الآخر، ويبرز تاريخ

التعاون الإسلامي المسيحي فى تشييد الحضارة العربية الإسلامية، وتُعنى تربية هذه الأجيال بالتأكيد على القيم العلا لهذه الحضارة ، ومطلوب أن تتعاون الأسرة مع المدرسة فى الوفاء بمتطلبات هذا الحقل، كما أن من أهم هذه الحقول ، الشباب، الذين يستحقون تخصيص برامج لهم تعزز تعارفهم وتعاونهم.

تتعدد ساحات التعاون والمشاركة، بدءاً من الشارع والحى حيث الكنيسة والمسجد، إلى المؤسسات المشتركة، إلى مؤسسات كل من المسيحيين والمسلمين، إلى القيادات الروحية، وقد عنيت لقاءات الحوار بالنظر فى سبل التعاون، ووسائله، وتوصلت إلى برامج تستحق أن تنفذ. وللقدوة والأسوة الحسنة دورها الكبير فى هذا التنفيذ، تُعطيها القيادات فى مختلف المواقع.

إن آفاق التعاون والمشاركة بين المسلمين والمسيحيين على مشارف ألفية ميلادية ثالثة، رحبة ، وهى تستحق من المؤمنين أن يتكاتفوا مسلمين ومسيحيين لريادتها، ونصب أعينهم رضاء الله سبحانه الذى لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

مسلمون ومسيحيون فى المجتمع المعاصر ومعنى المواطنة(*)

❖ مدخل : بروز قضية المواطنة فى عالمنا المعاصر

تتتابع اللقاءات الإسلامية - المسيحية فى رحاب المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن والمركز الأرثوذكسى بسويسرا، لتعمق التفاهم بين المؤمنين بالله من المسلمين والمسيحيين، ولتحقق تعاونهم على مواجهة تحديات ومعالجة مشكلات تبرز فى مجتمعاتهم المعاصرة، ويأتى هذا اللقاء ليبحث فى موضوع «المسلمون والمسيحيون فى المجتمع المعاصر : صور الآخر ومعنى المواطنة» مركزاً على نظرة كل من المسلم والمسيحى إلى الآخر (أسساً وواقعاً معاصراً» ، وعلى المواطنة فى المجتمع المعاصر، وعلى التحديات الحاضرة وما يترتب عليها وكيف نواجهها؟

حديثنا هذا هو عن عنصر المواطنة فى المجتمع المعاصر، وقضية المواطنة مطروحة اليوم بقوة فى عالمنا على صعيدى الفكر والممارسة، سواءٌ فى دائرة الدولة الواحدة، أو فى الدائرة الحضارية التى تضم داخلها عدداً من الدول المنتمية إليها، أو فى الدائرة العالمية التى يجرى الحديث عنها فى عصر ثورة الاتصال على أنها «القرية الواحدة» وتتداعى إلى الخاطر أمثلة كثيرة نورد نماذج منها.

(*)ألقيت هذا البحث فى اللقاء الإسلامى المسيحى الذى انعقد فى عمان بالأردن بدعوة من المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية فى ١١ / ١٩٩٨

شهـدت دائرة الحضارة الـغربيـة فى أوروبا فى تـسعيـنيات هذا الـقرن تفكـك كل من الاتحاد الـسوفيتـى ويوغوسلافـيا إلى دول، ونجم عـن هذا التفكك بروز قضية المواطنة ومعها مسألة الجنسية، وموضوع الهوية ودوائر الانتماء فيها، وثارت تساؤلات حول الأسـاس المعتمد فى تحديد المواطنة، أهو حق الدم أو حق الأرض أو الانـتماء الدينى أو المذهبـى أو التوافق فى عقد اجتماعـي؟ ويروى باحث سياسى روسى مرموق، ابـن لزعيم روسى سوفـيتي مشـهور، كيـف أن مسألة مـواطنته الـروسية بـعد انهيـار الاتحاد السـوفيتـى أصبـحت محـل تساؤل لأنـه ولد خـارج الأرض الروسيـة فى إحدى جمهوريات الاتحـاد أثناء عمل والده فيها، وكان عـليه أن يدخل فى سلـسلة إجـراءات ليثـبت «روسيتـه» شأن بضـع مئات آلاف مـن الروس الآخرين، وما أكثـر الأمثلة المشابهة فـى دول يوغوسلافيا السابـقة التى برز فيهـا بحدة عنـصر الانتمـاء الدينى أو المـذهبى إلى جـوار عنصر الانـتماء القـومي، بين صرب أرثـوذكس وكروات كاثـوليك وبوشـناق (بوسنـيين» مسلمين، كـما شهدت دائرة الحضارة الغـربية نفسها فى أوروبـا فى الفترة نفسها تـقدم دول الاتحاد الأوروبى نحو كيان أوروبى (مابـعد قومي) وهى الدول التى قامت على فكرة (الأمة– الدولة) (Nation -State) واعتمدت «القومية» أساساً لوجودها. ونجم عن هـذا الحدث تطورٌ فى مفهوم المواطنة القطرية، وتوجهٌ نـحو تقنين «المواطنة الحضارية الأوروبية» ، يتـجلى عملياً فى قوانين التنقـل والإقامة والعمل المتعلقة بمواطـنى هذه الدول ، ونلاحظ فى الوقت نفسه أن لمفهوم المواطـنة على الصعيد الرسمى فى بعض هذه

الدول قداسة تصل إلى حد إعطاء ما يترتب عليها أولوية على إعتبارات أخرى إنسانية، وقد رأى العالم أمثلة كثيرة على ذلك مثل السلوك البريطاني الرسمي في قضية الممرضتين البريطانيتين اللتين أدينتا بقتل زميلة استرالية لهما في المملكة العربية السعودية، وفي قضية جليسة الأطفال البريطانية التي تسبب إهمالها في موت الطفل الذي ترعاه في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد لفت السلوك الأمريكي في عملية إنقاذ ضحايا حادث نسف السفارة الأمريكية في كل من نيروبي ودار السلام الأنظار وأثار الاستغراب والاستهجان حين ركز على المواطنين الأمريكيين دون غيرهم .

أمثلة أخرى في الدوائر الحضارية الأخرى في عالمنا على إلحاح قضية المواطنة ومايتصل من مشكلات، نراها يوميا، وذلك بفعل ما تعرضت له أقطارها إبّان الاستعمار الغربي لها، وبفعل الحدودالسياسية التي رسمتها القوى الدولية للدول في الجنوب حين فرضت ثورة التحرير على هذه القوى إنهاء عصر الاستعمار المباشر (القديم) ، ولا نكاد نجد دولة واحدة من هذه الدول قد نجت من مشكلات قضية المواطنة الناجمة عن رسم الحدود السياسية. ويكفي أن نستحضر مناطق التخوم في هذه الدول لنرى حدة هذه المشكلات، وما أكثربؤر التوتر الناجمة عنها، وها نحن نشهد استمرار أزمة كشمير في القارة الهندية وأزمة جنوب السودان وأزمات أخرى مماثلة في دائرتنا العربية التي يعاني مواطنو دولها من أمور تتصل بقضية المواطنة، فيما يتعلق بالتنقل والإقامة والعمل.

متوقع ـ وهذا هو واقع قضية المواطنة فى مجتمعات عالمنا المعاصرة ـ أن يعنى بها المؤمنون بالله مسلمون ومسيحيون فى لقاءاتهم وحواراتهم ويتعاونون على حل مشكلاتها، وذلك لأن فى هذه القضية بعداً دينياً يتعلق بدائرة الانتماء الدينى أولاً، ولأن إيمانهم بالله سبحانه يوجههم إلى قيم روحية تحكم تعاملهم معها. وواضح أن هناك نقاطاً كثيرة تقع فى إطار دراسة هذه القضية ، وسوف نقوم فى هذا الحديث بتسليط أضواء على المصطلح وظهوره وتطوره، ونمعن النظر فى علاقة قضية المواطنة بدوائر الانتماء، ونتأمل فيما يمكن عمله لمعالجة المشكلات المتصلة بهذه القضية ، مستهدفين من ذلك كله إثارة نقاط لحوار يبلور أفكاراً بشأنها.

أضواء على قضية المواطنة فى عالمنا:

جاء ظهور مصطلح المواطنة فى دائرة الحضارة الغربية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادي، مع رسوخ فكرة (الدولة - القومية) وانتشار العلمانية بعد تفجر الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م ، وكان الإغريق القدماء استخدموا هذا المصطلح الذى حمل فى مفهومهم وضعاً حقوقياً وسياسياً مرتبطاً بالمقام الجغرافى والمدينة الدولة، وقد ترجم الفرنسيون كلمة Politia اليونانيةبـ Citoyenneté وترجمها الإنكليز بـCitizenship وكانت أقوام أخرى قديمة قد عرفت مفهوم المواطنة، ومن هؤلاء الفينقيون الكنعانيون، حسبما ذكر ديودروس وأرسطو فى كتاب «السياسة»[1] .

---

(١)هيثم مناع ، المواطنة فى التاريخ العربى الإسلامي، مركزالقاهرة لحقوق الإنسان.

أخذ مصطلح المواطنة في الغرب الحديث وضعاً قانونياً يميز المواطن عن الأجنبى غير المواطن ، جرى التعبير عنه بكلمةNationality التى اشتقت من Nation . وحين انتقل مصطلح المواطنة الغربى إلى اللسان العربى اشتقت الكلمة من «الوطن» وهو «موطن الإنسان ومحله والمنزل الذى يقيم به» بينما تمت ترجمة مصطلح الوضع القانونيNationality «بالجنسية» التى شاع استخدامها، وهى كما هو واضح مشتقة من جذر «الجنس» الذى من معانيه التمييز بين الذكر والأنثى، والترجمة الحرفية للكلمة هى «الأمية» أو «الجماعية» .

يمكننا فى ضوء ما سبق تعريف «المواطنة» بأنها رابطة بين الفرد وجماعة ما تقوم على انتماء لدائرة ما أو أكثر من دائرة ، كما يمكن تعريف «الجنسية» بأنها تعبير قانونى عن المواطنة ، ويستخدم الأمريكيون كلمة Citizenship للدلالة عليها ، وقد عرفتها موسوعة كولبير بأنها «أكثر أشكال العضوية فى جماعة سياسية اكتمالاً» ، فالمواطن «مدين بالولاء لدولته، ومحل محددات تتعلق بالعمر والجنس وشروط أخرى، وهو يملك حقوقاً مدنية وسياسية كاملة» لا يتمتع بها «الأجنبي». وهكذا تبرز العلاقة بين المواطنة والجنسية،فالذين توطنوا فى مكان واحد وأقاموا فيه جيلاً من الزمن يحملون جنسية واحدة وينتمون إلى وطن واحد أسبغ عليهم هذه الجنسية، وكلا المصطلحين يشير إلى علاقة فرد بدولة وليس بفرد آخر.ويحكم هذه العلاقة «عقد اجتماعي» بين الفرد والدولة . وهكذا

يرى البعض أنه بفكرة المواطنة جرى تحرير الفرد فى الغرب من التبعية لفرد آخر كما كان الحال فى عهد الإقطاع فى العصورالوسطى هناك، وأصبحت تبعية الفرد للدولة.

يلاحظ الباحثون فى قضية المواطنة أن قوانين الجنسية تتباين فى عالمنا، وقد قررت معاهدة لاهاى فى ١٢ / ٤ / ١٩٣٠م أنه «يعود لكل دولة أن تحدد بتشريعاتها الخاصة من هم وطنيوها، وأن هذه التشريعات فقط لها الحق فى تحديد ما إذا كان الفرد من رعايا الدولة أم لم يكن» وهكذا جرى اعتماد حق الدم أحياناً وحق الأرض أحياناً ، ووجدت أشكال من الجنسيات مكتسبة وممنوحة وشرفية، إلخ.. وتأثرت قوانين الجنسيات بالخصوصيات الثقافية - الاجتماعية، وتحكمت فيها مصالح «فتقولبت فى نطاق حركية مصلحية» على حد تعبير ماكس فيبر، وقد رفضت الكيانات التى قامت على الاستعمار الاستيطانى اعتماد حق الدم وحق الأرض لأهل البلاد الأصليين فى منح المواطنة، وأطلقت عليهم اسم indigené بالفرنسية، وهذا شأن الكيان الإسرائيلى الصهيونى الذى أقر «مبدأ العودة» لكل يهودى بقانون وجعل «اليهودية» المرجع الأساسى لمفهوم الجنسية فى الغالب. ويرى بعض الباحثين أن الجنسية تتضمن فى طياتها «إغلاقاً» يحدد تخوم المشاركة فى الفعاليات الاجتماعية أو ينفيها ، فهى تخرج «الأجنبي» من دائرة المواطنة «وتهمّشه» وتحرمه من حقوق أقرها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان. ولكنها من جهة ثانية تمنح المواطن هذه

الحقوق والمشاركة فى صنع حياة المجتمع، وهناك دول تجعل «المواطنة» درجات وتميز بين جنسية الدولة الممنوحة لفئة وجنسيتها الممنوحة لفئة أخرى، فلا تتساوى حقوق المواطنين[1].

إن واقع قضية المواطنة فى مجتمعات عالمنا المعاصر جعلت كثيراً من التساؤلات تطرح بشأنها فى الدوائر الثلاث على السواء، دائرة الدولة الواحدة ودائرة الحضارة الواحدة، ودائرة العالم الواحد، ومن بين هذه التساؤلات:

هل يكون الأصل هو المساواة التامة بين جميع المواطنين فى جميع الحقوق والواجبات فى الدولة الواحدة ؟ ألا ينبغي أن تأخذ«المواطنة» فى الاعتبار حقيقة الانتماء لدائرة حضارية واحدة؟ وكيف ؟ هل يمكن الارتكاز على مفهوم المواطنة لتنظيم العلاقات بين المجتمعات فى عالمنا وتطبيق الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ؟ وكيف يمكن التوفيق بين النظرة القطرية الضيقة والنظرة الدولية الرحبة؟

وهناك تساؤلات أخرى تطرح حول معيار المواطنةومن ثم الجنسية أهو عنصر الدم أم عنصر الأصل أم عنصر الدين أم مجموعة العناصر الثلاثة ؟ وحول طابع الجنسية ، أقانونى أم سياسي؟ وحول تنويع درجات المواطنة والجنسية، أهى تأسيسية أم أصلية أم مكتسبة؟

---

(١) أحمد حمد ، فقه الجنسيات ، ١٩٨٦م ، هيثم مناع ، المواطنة فى التاريخ العربى الإسلامى.

ثم هناك تساؤلات حول سياسة التعامل مع التشريعات الخاصة بالمواطنة والجنسية، فهل يجب التشدد فى منح الجنسية أم التساهل؟

لعل من أهم النقاط التى تتضمنها هذه التساؤلات نقطة العلاقة بين العقيدة الدينية والهوية الوطنية، فهذه العلاقة، كما يقول جون تايلور فى بحثه عنها فى البلقان- التى اتسمت بالاختلاط وبالعنف أحيانا ـ«كانت أحد عوامل الشعور بالحرمان من حق شرعى فى البلقان وخاصة فى أقطار يوغوسلافيا السابقة التى برزت فيها محاولات سياسية لمعادلة جنسية ما بالأرثوذكسية أو بالكاثوليكية أو بالإسلام»وتشغل علاقة الدين بالمواطنة بال مفكرين وسياسيين مسلمين ومسيحيين[1] فى دائرتنا العربية اليوم، كما شغلت أجيالاً سابقة منهم طوال القرنين الماضيين، ويشرح طه جابر العلوانى أسباب هذا الانشغال فى بحثه «حول فكرة المواطنة فى المجتمع الإسلامي» قائلاً:

«لقد مثّل موضوع «المواطنة» جزءاً من مشكلة «الهوية» والمفاهيم المختلفة التى ارتبطت بها منذ بدء احتكاكنا الفكرى والثقافى والسياسى والعسكرى بالغرب فى القرن الماضى ، وإذا كانت المسألة قد حسمت على صعيد الواقع منذ أن تمزقت الدولة العثمانية، وتحولت أشلاؤها العربية وغيرها إلى دول وحكومات قومية وإقليمية، فإن المسألة لم تنته على

(١)جون تايلور ، الأيديولوجية الدينية والهوية الوطنية فى البلقان ،دراسات إسلامية ٣ / ١٩٩٧م

john Taylor , Religious Ideology and National Identity in Balkans , Islamic Studies 3 / 1997.

المستوى الفكرى والثقافى ، بل بقيت سؤالاً كبيراً يطرح بشكل تحد أحياناً وبشكل عذر أو ذريعة أحياناً ، كما يطرح بشكل تساؤل أحياناً أخرى ، وأياً كان الشكل الذى يطرح الموضوع به، فقد بقى موضوعاً شديد الحساسية كبير الخطر، حتى إذا بدأت مظاهر الشيخوخة والكبر والفشل تبدو على قواعد الدولة القومية والدولة الإقليمية الوطنية فى بلاد المسلمين بدأ البحث يشتد حول صيغ جديدة للهوية والانتماء، وأفضل أساليب تنظيم العلاقات بين شعب كل قطرمن ناحية والحكومات المهيمنة على مقدراتهم حزبية كانت أو عسكرية أو غيرها من ناحية أخرى ، وتضاعف حجم ذلك السؤال كثيراً ونما بشكل هائل». كما يعرض غسان سلامة لهذه العلاقةفى بحثه « نحو عقد اجتماعى عربى جديد، بحث فى الشرعية الدستورية» ، ويشير إلى كثرة أعداء الفكرة الوطنية المتصلة بقضية المواطنة، فى أوساط التيارين الإسلامى والقومي، وذلك فى معرض دعوته لأن يقوم هذا العقد الاجتماعى على خمسة أركان، هى الفكرة القومية والفكرة العربية والفكرة الديموقراطية وحقوق الأفراد والجماعات ومضمون اجتماعى ، وأمثلة أخرى كثيرة فيما صدر عن هؤلاء الباحثين.

تطور قضية المواطنة فى الدائرتين القومية والحضارية:

عنى الفكرفى الدائرة العربية ودائرة الحضارة العربية الإسلامية بقضية المواطنة هذه، منذ انتقلت من دائرة الحضارة الغربية إليهما ، وطرح المفكرون فيهما إجابات عن التساؤلات التى برزت فى إطار هذه القضية،

وقد تتبع طارق البشرى فى كتابه «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية» تاريخ الأفكارالتى جرى طرحها منذ عهد محمد على فى مصر، وفصّل الحديث عن العلاقة بين العقيدة الدينية، والهوية الوطنية فى أحد فصول الكتاب الذى صدر مستقلاً بعنوان «بين الجامعة الدينية والجامعة الوطنية فى الفكر السياسي»فدولة محمد على التى قامت فى مصر وحظيت بنوع من الاستقلال فى إطار الدولة العثمانية بدأت بتمصيرالجيش عام ١٨٢٢ م ، وأبقت للأقباط المسيحيين المصريين دورهم التقليدى فى إدارة شؤون المالية العامة للدولة، وحين قام أول مجلس نيابى فى «الخديوية» فى عهد الخديو إسماعيل عام ١٨٦٦م نص على أن كل مصرى بلغ الخامسة والعشرين من عمره يمكن ترشيحه ، يستوى فى ذلك الجميع مسلمين ومسيحيين ويهودا، بلا تفرقة على أساس الدين، وقدأوضح رفاعة الطهطاوى فى كتابه «مناهج الألباب» عام ١٨٦٩ م أن الوحدة الوطنية تشمل الملل المختلفة، وتقوم على الاتحاد فى اللسان والحاكم، كما أوضح أن هناك أخوة عامة تمليها العبودية لله ويترتب عليها التساوى فى الإنسانية، وأخوة إسلامية يمليها الدين الإسلامي، وهكذا جرى إقرار الجامعة الوطنية بغير عراك مع العقيدة الدينية، ونجد فى الفترة نفسها أن البطريرك مرقص وجه رعيته من الأقباط إلى التمسك بهذه الجامعة، وهاجم التغريب الذى تفشى فى أوساط قبطية بفعل الغزوة الفرنسية، كما نجد أن الكنيسة القبطية قاومت التبشير الأمريكى البروتستانتى الذى نشط فى القرن التاسع عشر مستهدفاً الأقباط والمسلمين على السواء.

فرضت قضية المواطنة نفسها بقوة فى الدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وجاء الخط الهمايونى عام ١٨٥٦ م بعد خط شريف كولخانة عام ١٨٣٩ م، ليقرر مبدأ المواطنة لجميع العثمانيين على اختلاف مللهم، ودار حوار غنى فى ديار الإسلام عموماً حول القضية برز فيه تيارٌ اتخذ موقفاً يغلب عليه رد الفعل الرافض تحسباً من نفاذ قوى الهيمنة الغربية من خلال قوانين «المشروطية» . كما برز تيارٌ أقوى حرص على التواؤم مع هذا الجديد وتأصيله دينياً، وقد حكى الشيخ رشيد رضا أن الشيخ محمد عبده كان يرى الوطنية عبارة عن تعاون أهل الوطن الواحد لمختلفى الأديان فى كل ما فيه عمرانه وإصلاح حكومته ، وأن الإسلام لا يعارض فى شيء من ذلك كما يثبته شرعه فى العدل والمساواة، وأن السيد جمال الدين الأفغانى كان يرشد تلاميذه وحزبه السياسى إلى وجوب اتحاد أهل كل قطر، وكان حزبه مؤلفاً من أذكياء الملل المختلفة، ومن الذين عبروا عن هذا التيار عبد الله النديم فى صحيفته «الأستاذ»، قائلا :«المسلمون والأقباط هم أبناء مصر الذين ينسبون إليها وتنسب إليهم»(١).

استمرت قضية المواطنة مطروحة فى أقطار الدائرة العربية ودائرة الحضارة العربية الإسلامية بعد انهيار الدولة العثمانية وانتهاء نظام الخلافة عام ١٩٢٤م ، وقيام الدولة الحديثة فى هذه الأقطار وفق أنموذج «الدولة

(١) طارق البشرى ، المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية ، دار الشروق.

الوطنية» وإذا كانت هذه الدول قد تبنت الفكرة قانونياً وعملياً على صعيد الواقع، إلا أن القضية بقيت مطروحة على الصعيد الفكري، وحفلت الممارسة العملية بما كان يثيرها. وهكذا رأينا الحوار يستمر والكتابات تتتالى حول القضية، ونذكر كيف شدَّ هذا الحوار كثيرين حوالى منتصف هذا القرن حين أصدر خالد محمد خالد كتابه « من هنا نبدأ» الذى نادى فيه بوطنية الحكم وهاجم الحكومة الدينية، فرد عليه محمد الغزالى بكتابه «من هنا نعلم» مفنداً . وأصدر عبد المتعال الصعيدى كتابه «من أين نبدأ» الذى حاول فيه التوفيق بين الانتماء الوطنى والانتماء الديني، «فالإسلام لا يمنع المصرى المسلم مثلاً أن يعتز بمصريته مع اعتزازه بإسلامه وأن يذكرمفاخر قدماء المصريين مع ذكر مفاخر سلفه من المسلمين » «وإن لكل مسلم جنسيتين ، جنسية عامة يشاركه فيها جميع المسلمين، وتعد بالنسبة لهم جنسية واحدة ، وإن كانت مجتمعة فى شعوب مختلفة، وجنسية خاصة قد يشاركه فيها غير المسلم كالجنسية المصرية ونحوها من الجنسيات، وكذلك لكل مسلم وطنان..» والحق أن محاولة التوفيق هذه كان لها ما يبررها، وإن جاء الحديث عن الجنسيتين ينقصه الوضوح والتحديد، وقد دعا هذا الحوار إلى الخاطر المعركة التى أثارها فى النصف الثانى من العشرينات صدور كتاب على عبد الرازق «الإسلام ونظام الحكم».

دخل الحوار حول قضية المواطنة مرحلة جديدة فى النصف الثانى من القرن العشرين فى منطقتنا، وشارك فيه كثيرون فى الدائرة الوطنية والدائرة القومية والدائرة الحضارية، وأثَّرت فى مجراه ومضمونه أحداث

وقعت ومسائل جرى طرحها، فقيام دولة باكستان مثلاً بعد تقسيم الهند طرح مسألة دين الدولة والحكم بالإسلام، ومكان غير المسلمين فى الدولة، وبروز فكرة القومية العربية وما حدث من اتحادات وانفصالات طرح مسألة المواطنة القومية، وظهور الصحوة الدينية طرح مسألة المواطنة والأخوة الدينية والحضارية، كذلك فإن الممارسة العملية للمواطنة القطرية أثارت مسألة مساواة الذكروالأنثى فى المواطنة، وخاصة فى أمر النساء المتزوجات من غير جنسيتهن ووضع أولادهن.

ويمكننا أن نلاحظ فى هذا الحوار الدائر حول قضية المواطنة عدة موضوعات حيوية يجرى تناولها وتتطلب معالجة . الأول منها هو وضع غير المسلمين فى دولة وطنية غالبيتها من المسلمين. والثانى هو وضع عرب مسلمين ومسيحيين فى دولة وطنية عربية غير القطر الذى ينتمون إليه، والثالث وضع مسلمين من غير العرب فى دولة وطنية عربية ترفع شعار الإسلام، والرابع وضع أبناء مواطنات فى دولة وطنية مسيحيات ومسلمات متزوجات من جنسيات أخرى.

كثيرة هى الكتب التى صدرت حول قضية المواطنة فى هذه المرحلة، وقد حظى الموضوع الأول بنصيب وافر منها، لأنه يتصل بقضية نظام الحكم بالإسلام ويدخل فى الحوار الدائر حولها فى ديارنا، وهو موضع شبهة يوجهها غربيون للإسلام. كما حظى الموضوع الثانى بعناية التيار القومي، وحظى الموضوع الثالث بعناية التيار الحضارى الذى يستشعر

أهمية الدائرة الحضارية، وحظى الموضوع الرابع بعناية كثيرين من مختلف الاتجاهات الفكرية استشعروا المعاناة منه، ولا يتسع مجال هذا الحديث لتفصيل ما تضمنته هذه الكتب ، وقد عرض طارق البشرى للكثير منه فى كتابه، كما عنى إدوارد غالى الذهبى فى كتابه «معاملة غير المسلمين فى المجتمع الإسلامي» باستعراض بعض هذه الأفكار، ونشير إلى ما صدر عن المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) فى الأردن عن معاملة غير المسلمين فى الحضارة الإسلامية . والملاحظ أن جل هذه الكتابات أكدت على تكريم الإسلام بنى آدم واحترام حقوق الإنسان، واستشهدت بصحيفة المدينة لتدلل على المساواة فى هذه الحقوق بين جميع الملل، وقدمت رؤية عصرية لمصطلح «أهل الذمة» ولموضوع تأديتهم «الجزية» وقررت احترام المواطنة، ولقد لاحظ محمد سليم العوا - بحق - فى كتابه « فى النظام السياسى للدولة الإسلامية» أن بعض من تعامل مع قضية المواطنة اعتمد منهجاً سلبياً مكتفياً باستذكار أحكام الفقهاء السابقين، وأن بعضاً آخر اعتمد منهجاً إيجابياً متابعاً الاجتهاد، ولكن فى أضيق الحدود، وأوضح أن أصولاً ثلاثة تحكم التعامل مع هذا الموضوع ، هى تحكيم نصوص الشريعة الواردة فى القرآن الكريم، وقبول ماتقتضيه المشاركة فى الدار أو الوطن بتعبيرنا العصرى ، وإعمال روح الأخوة الإنسانية بدلاً من إهمالها(١).

---

(١) محمد سليم العوا ، فى النظام السياسى للدولة الإسلامية ، دار الشروق .

المواطنة ودوائر الانتماء من وجهة نظر إسلامية:

في معالجتنا لقضية المواطنة في المجتمع المعاصر، في ضوء نشأة هذه القضية وتطورها، نركز النظر على علاقتها بدوائر الانتماء للفرد في هويته الواحدة، فهذا الفرد يولد في «ديار» هي «موطنه» لم يختره لنفسه ، ولكنه يجدنفسه منتمياً إليه وهو يشترك مع آخرين ولدوا في «الديار»فأصبحت العلاقة بالموطن علاقتهم جميعاً . «فهم مواطنون في وطن مشترك تربطهم به علاقة مشاركة تاريخية ، كما يقولون، تعبيراً عن أنها ناتج تطور طويل ، وليست من إنشاء إرادة منفردة وقتية» على حد قول عصمت سيف الدولة في كتابه «عن العروبة والإسلام»[٢] فدائرة الانتماء إلى «الديار» «الوطن» بالغة الحيوية في تحديد «المواطنة» وواضح أن الدولة الوطنية القطرية أخذت هذه الحقيقة في الاعتبار- في معظم الأحيان - باستثناء كيانات الاستعمار الاستيطاني العنصري التي حصرت المواطنة في فئة معينة أو جعلتها درجات حسب «العنصر» المعتمد.. ويستوي في هذه المواطنة القطرية أبناء جميع الملل والأقوام، باستثناءمقيمين وافدين لم تكتسبوا جنسية الدولة.

إن الإسلام يعترف بدائرة الانتماء هذه ويحترمها ويذود عنها، وقد تحدثت عدة آيات كريمة عن «الديار» واعتبرت الإخراج منها مبرراً لقتال المعتدين ، وحفلت السيرة النبوية بالشواهد على محبة الوطن، وعلى تنظيم

---

(٢) عصمت سيف الدولة، عن العروبة والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية .

العلاقة بين أهل الوطن الواحد، كما تجلى ذلك فى الصحيفة، وهذا ما دعا كثيراً من المفكرين المسلمين إلى أخذ هذه الدائرة فى الاعتبار فى قضية المواطنة، وجعلتهم يعلنون اتساع الإسلام لقبول مفهومها، ومن هؤلاء راشد الغنوشي. ولذا فإن القول بأن «مشكلة المسلمين مع الإسلام كانت منذ البداية أنه دين أيديولوجيا بغير جغرافية، تهمه هوية الأرض أكثر مما تهمه الأرض» لا تصدقه الآيات الكريمة ولا السيرة النبوية ولا مجرى حركة تاريخ الحضارة الإسلامية، واعتماد غسان سلامة هذا القول للتدليل على أن الإسلاميين يعادون الفكرة الوطنية بدافع أيديولوجى أمريستوجب إعادة النظر، وملاحظةأن العصبية التى تحدث عنها ابن خلدون واستشهد بها الباحث للتدليل على رأيه، هى ثمرة نسب ووطن[1] ، فالنسب الواحد يرتبط بموطن واحد فى الأصل، ومن هنا فإن أية معالجة لقضية المواطنة فى المجتمع المعاصر يجب أن تأخذ فى الاعتبار دائرة الانتماء إلى «الديار»«الموطن».

هناك دائرة الانتماء إلى «الأمة» الواحدة بشعوبها فى وطنها الكبير الذى يضم «مواطن» الأقطار وأراضى الدول الوطنية القطرية ، فالفرد المنتمى لموطنه يستشعر انتماءه لهذه الدائرة القومية الأوسع، ويقوى هذا الاستشعار مقترناً بشعور من المرارة حين تكون التجزئة مفروضة على هذا الوطن الكبير، وتقوم بين الأجزاء حدود سياسية، ومثل على ذلك انتماء الفردالعربى الناطق باللسان العربى مسيحياً كان أو مسلماً للعروبة، وهذه

(١) غسان سلامة، نحو عقد اجتماعى عربى جديد، مركز دراسات ا لوحدةالعربية.

العروبة كما قال عصمت سيف الدولة «علاقة انتماء إلى وضع تاريخى تدرك العربى منذ مولده وتصاحبه حتى وفاته، ولو لم يكن مميزاً ، ولو لم يدركها، ولو كفر بها». وقد توقف جيمس كريجJames Craig أمام هذا الانتماء للعروبة فى محاضرته «ماذا يكون العربى ؟ What is an Arab وهو الدبلوماسى البريطانى الذى عمل فى عدة دول عربية، ثم عين مديراً عاماً لمنظمة الشرق الأوسط فى بلاده وحاضر فى أكسفورد، وفى محاولته الإجابة عن السؤال : مَن العربي؟ لاحظ أن هذا السؤال لو انصرف إلى فرد بريطانى أو أمريكى لجاء الجواب سهلاً بالقول: « هو من له حق حمل جواز بريطانى أو أمريكي، ولكن لا يوجد شيء اسمه الجواز العربي» وأوضح أن التحديد الذى لاقى قبولاً هو أن العربى هو شخص ما اعتبر نفسه عربياً، ووقف أمام سمات العرب والمجتمع العربى فلاحظ «أن أولى خصائصه التى هزتنى إدراك العربى الثابت لانتمائه العربي، لعروبته.. إن العرب فريدون فى كونهم موزعين فى عشرين قطراً أوأكثرلكل منهم جنسيته، ولكن كلاً من هذه الأقطار فيه غالبية من المواطنين الذين يشعرون بالولاء لعروبتهم مثل ولائهم لوطنيتهم القطرية أو أكثر» وعلل ذلك بحداثة الدول العربية التى يعود قيامها إلى هذا القرن، وإلى أن للعرب تاريخاً واحدا متصلا عبر قرون وهذا ما جعل المعجم السياسى يستخدم كلمة «القومية» للدلالة على هذا الانتماء إلى جانب كلمة «الوطنية» للدلالة على الانتماء لدائرة الدولة القطرية[1].

---

(١)جيمس كريج، محاضرة ألقيت بتاريخ ١٨ / ١١ / ١٩٩٦ م فى منظمة الشرق الأوسط، انجلترا ، بعنوان «ماذا يكون العربي؟».

James Craig , What is an Arab? ,Middle East Association , England

إن الإسلام يعترف بدائرة الانتماء «القومي» هذه ، ويحترمها ويذود عنها ، فالله سبحانه خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل، مختلفة ألسنتهم وألوانهم - آية من آياته - فكانت «الأقوام» ومن ثم «القوميات» وقدأعطت «الصحيفة» فى تنظيمها مجتمع المدينة مثلاً للتنوع فى الوحدة، وحفلت صفحات تاريخ الحضارة العربية الإسلامية بأمثلة على إدراك العلاقة بين الانتماء القومى والانتماء الديني، فى السلم والحرب، على السواء ، ومن ذلك موقف العز بن عبد السلام المقاوم للغزو المغولى التيمورلنكي، رغم كون الغزاة يدينون بالإسلام، ومثله موقف كثير من المسيحيين الأرثوذكس الرافض للغزو الفرنجي الذى رفع شعار الصليب، والرأى الغالب فى فكر التيار الإسلامى المعاصر يؤكد هذا الاعتراف بدائرة الانتماء القومي، وبتكاملها مع دائرة الانتماء الديني، ومثل على ذلك ما كتبه يوسف القرضاوى عن العروبة والإسلام. وهذا شأن الرأى الغالب فى فكر التيار القومى المعاصر، ومثل على ذلك ما كتبه عصمت سيف الدولة فى الموضوع نفسه، وقد تجلى اللقاء بين هذين التيارين فى توافقهما على تأسيس المؤتمر القومي- الإسلامى الذى ضم عرباً مسلمين ومسيحيين من التيارين، ولكن لا تزال هناك قلة فى التيارين أسيرة اصطناع تناقض بين الانتماءين القومى والدينى ارتفع صوته فى الخمسينيات، وهى تعمد إلى إنكار أحد الانتماءين للتأكيد على الآخر مغفلة تكاملهما، وواضح أنها تؤثر سلبياً فى قضية المواطنة، وخاصة أنها تعمد إلى خطاب يتصف بالمغالاة والحدة،ولافت أن الرأى الغالب يشق طريقه قدماً بما يتصف به من علمية ووسطية.

لابد من أخذ دائرة الانتماء القومي في الاعتبار في قضية المواطنة، سواء عند سن قوانين المواطنة في الدولة الوطنية القطرية، أو في روحية تطبيق هذه القوانين. ويلاحظ أن جل دساتير الدول العربية تنص على الانتماءللأمة العربية، إلا أن أكثرهذه الدول لم يقنن مبدأ المواطنة العربية، وقد دعا كاتب هذا البحث إلى هذا التقنين في كتابيه « عن شعب فلسطين العربي » و«وحدة التنوع»، وتحفل قرارات صادرة عن جامعة الدول العربية بمايساعد على هذا التقنين، ولكنها لم تأخذطريقها إلى التطبيق في غالب الأحيان، كما حدث في دوائر قومية أخرى في عالمنا في أوربا وأفريقيا، وهناك خطوات محدودة تم اتخاذها على هذا الصعيد في مجلس التعاون الخليجي تستحق التشجيع، وواضح أن تأخر تقنين هذا المبدأ في الدول العربية يجعل أي عربي يحل في دولة عربية أخرى لا يحمل جنسيتها «أجنبيا» لأن «الأجنبي» في القانون المصري مثلاً هو كل من لا يتمتع بالجنسية المصرية، حسب قانون ٨٩، ولا شك في أن المؤمنين بالله من المسيحيين والمسلمين يستطيعون التعاون معاً في توظيف حقيقة الانتماء القومي إيجابياً وحمايته من الاستعلاء الذي يشوهه، باستحضار قيم الأخوة الدينية الإنسانية، وقد لاحظ جون تايلور ـ بحق ـ في بحثه عن البلقان أن القومية التي يمكن أن تكون تأليفاً نبيلاً للقلوب، يمكن أن تتشوه أحياناً بالاستعلاء، واستشهد ببيان وفد علماء الأديان الذين زاروا البلقان في ١٩ / ١٠ / ١٩٩٤ م وقد جاء فيه أن الهوية القومية يجب ألا تعني قومية متعصبة ضيقة، وأن الوحدة عبر التنوع ضرورية وممكنة للأمم

والأديان، وأنه لابد من التعاون بين المؤمنين لإيجاد قوى محركة لربط صحى بين الدين والقومية.

هناك أيضاً دائرة الانتماء إلى «الدين» ومن خلاله إلى «الحضارة»، والصلة بين الدين والحضارة وثيقة، فالفرد منذ أن يولد ينتمى لدين والديه وقومه، ويتمثل فى ترعرعه تعاليم هذا الدين ، ولا يلبث أن يدرك أنه ينتمى لحضارة أسهم الدين فى ازدهارها ، تجمعه مع آخرين من ملل أخرى وأقوام آخرين فى دائرة واحدة لها قيمها وإنجازاتها وتاريخها الذى أسهم الجميع فيه، فابن الحضارة الغربية مثلاً من أى قطر أوروبى كان أو من الولايات المتحدة الأمريكية يستشعر انتماءه لمعتقده ولهذه الحضارة، والأمرنفسه بالنسبة لابن الحضارة العربية الإسلامية التى شارك مؤمنون من ملل عدة وأقوام عدة فى ازدهارها، وقد لاحظ جيمس كريج فى حديثه عمن هو العربى أن الخاصية الثانية للمجتمع العربى بعد خاصية العروبة هى استشعار أهمية الإسلام ، لأن القرآن نزل بالعربية على نبى عربي، كما لاحظ قوة هذا الاستشعار رغم ما تعرض له الإسلام من محن وهجوم، ولفته بقوة أن المسيحيين العرب يشاركون إخوانهم المسلمين هذا الاعتزازبالإسلام تاريخاً وحضارة، . وأورد استشهادات عدة للتدليل على هذه الخاصية من أقوال مسيحيين عرب من مختلف الشرائح خاصة وعامة، والحق أن عدداً من المفكرين والباحثين العرب المسيحيين المعاصرين شرحوا هذا الانتماء لحضارتهم العربية الإسلامية [1] وقد

---

(١) إدوارد غالى الذهبى ، معاملة غير المسلمين فى المجتمع الإسلامي، مكتبة غريب، كريم بقردونى وكريم مروة، «الوطن الصعب، الدولة المستحيلة» ، دار الجديد.

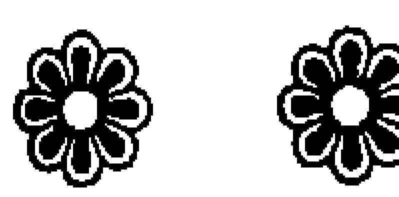
كتب قسطنطين زريق فى «الوعى القومي» عام ١٩٣٨م، إن واجب كل عربى بصرف النظر عن معتقده الدينى أن يدرس الإسلام وتاريخ النبى محمد من جهة أنه موحد العرب وجامع شملهم ، كما كتب آخرون عن اعتزازهم بالإسلام حضارياً، ومنهم الأب جورج قنواتي، وفى كتابه «عن العروبة والإسلام» أبدع عصمت سيف الدولة فى شرح لقاء المسلمين والمسيحيين على قيم هذه الحضارة، وخاصة معيار الحلال والحرام فيها، وأوضح أن الانتماءالدينى قد يتعدد فى أمة واحدة دون أن يمس هذا التعدد وحدة الأمة، مستشهداً بعشرات الآيات فى القرآن الكريم.

إن الإسلام يعترف بالانتماء لهذه الدائرة الدينية الحضارية، ويحث على تآخى الشعوب والأمم فى إطارها أقواماً متحابين ومللاً، متعارفين متعاونين على البر والتقوى، يستبقون الخيرات، وقد أثمرهذا الانتماء خيراً كثيراً فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وكان للمسيحيين إسهامهم بنصيب وافر فيها، وخاصة أتباع الكنيسة الأرثوذكسية التى تميزت منذ نشأتها بصرامة التزامها بتعاليم السيد المسيح عليه السلام وانتمائها لهذه الحضارة، على حد وصف عصمت سيف الدولة لها.

ينبغى أخذ الانتماء لهذه الدوائر فى الاعتبار عند معالجة قضية المواطنة، وقد تنبهت الدول الأوروبية الغربية لهذا الأمر بعد أن عانت الأمرّين من إغفاله لعدة قرون اكتوت أثناءها بحروب نفخ فيها الاستعلاء القومي، وهكذا اتجه الاتحاد الأوروبى إلى تقنين المواطنة الحضارية الأوروبية فى اتفاقية ماستريخت، والحاجة ماسة إلى تقنين المواطنة

الحضارية فى الدائرة الإسلامية، ولمنظمة المؤتمر الإسلامى دور ينتظرها على هذا الصعيد.

وبعد .. فإن قضية المواطنة فى المجتمع المعاصر سوف تبقى مطروحة تستنفر مزيداً من الجهود لمعالجتها بحيث تنسجم مع مختلف دوائر الانتماء فى الهوية الواحدة، وواضح أن ما نجم عن ثورة الاتصال من آثار على صعيد التواصل بين المجتمعات وإدراك كل مجتمع لذاتيته، سوف يحث على معالجة لها تجمع بين ماتتطلبه المساواة بين بنى الإنسان وما يتصف به المجتمع من سمات تعود إلى ما فيه من أقوام وملل، وما يتطلبه التوجه نحو تعاون الحضارات فى عالمنا، وواضح أن ظاهرة العولمة التى نراها اليوم فى العالم بما تتضمنه من فرض قسرى يستثير الخصوصية الثقافية للمجتمعات، سوف تستنفر المؤمنين بالله ليعملوا معاً لاحترام حقوق الإنسان والحفاظ على ذاتيته وصيانة هويته.



المحتويات

* * *

كتب للمؤلف

للمؤلف خمسون كتابا فى التاريخ ودراسة المستقبل والفكر السياسى والادب من بينها:

- رحلات ولحظات ممتدة
- فكر وفعل
- ماد بعد حرب رمضان
- الحوار العربى الأوروبى
- الانتفاضة الفلسطينية (٤ ج)
- عن المستقبل برؤية مؤمنة
- وحدة التنوع
- عمران لاطغيان
- تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر
- لا للحل العنصرى فى فلسطين
- تفاعلات حضارية وأفكار للنهوص
- أزمة الحل العنصرى لفلسطين وسبيل تحريرها

المؤلف والكتاب

المؤلف: هو أحمد صدقي الدجاني المفكر العربي المسلم من فلسطين، المنتمي لمدرسة العمران الحضاري الإسلامي، المعني بالنظر في قضايا العصر بالرؤية المؤمنة، وأحد المشتغلين بالعمل العام، العاملين لتحقيق المشروع النهضوي للأمة.

والسلسلة: هي عصارات فكرية حول موضوعات حيوية مطروحة في دائرة الحضارة العربية الإسلامية، وعالمنا المعاصر بعامة، شغل المؤلف بمعالجتها في خضم اشتغاله بالعمل العام.

والكتاب: هو الأول في هذه السلـ
يتناول موضوع المسلمين والمسـ
الحضارة العربية الإسلامية برؤ

3

الناشر: مركز يافا للدراسات والأبحـ